

رواية

رسائل من شجرة الصفصاف

تأليف : فاطمة علي

إلى الكلمات التي بقيت حبيسة الحناجر، فاحتضنتها أوراق
الصفصاف ..

إلى الرسائل التي ضلت طريقها، لكنها وصلت أخيرا إلى
القلوب التي تستحقها .

هنا تسكن حكايا لاتموت مهما طال عليها الغياب .

إلى أبي..

الذي انتقل إلى رحمة الله منذ ثلاثة عشر عاماً، وترك لي
عكازاً من الكلمات أتكى عليه كلما تعثرت بي الحياة. رحلت
قبل أن ترى اسمي على غلاف روايتي، لكنني كأبطال
حكائتي، آمنتُ أن الأرواح لا تغيب، بل تظل تهمس لنا في
لحظات الضعف لتشدّ أزرنا.

إليك يا أول من غرس فيّ بذرة الحكاية، وأول من آمن أن
ابنتك ستحمل النور في قلبها يوماً ما.. أهدي إليك هذا الصدى،
وهذه الرسائل التي نبتت من جذور الصبر التي تركتها فيّ.

المقدمة :

لم يكن الصمتُ يوماً يعني العدم، كان دائماً

يعني أن هناك حديثاً موجلاً لم يجد مأواه بعد.

وفي تلك الزاوية المنسية تحت شجرة الصفصاف العتيقة، كانت
الأرض تخبئ ما هو أثقل من الجذور.

لم تكن مجرد أوراق متهالكة اصفرت بفعل الزمن، بل كانت
نبضاتٍ حُبست في أظرفٍ مغلقة، تنتظر يداً ترتجف وهي
تكسر ختم الحقيقة. حين وضعتُ يدي على أول رسالة، شعرتُ
ببرودة الموت وحرارة الندم تتسللان إلى أصابعي.. وكان
الشجرة كانت تهمس لي: "لقد تأخرت كثيراً، لكنك وصلت في
الموعد المناسب تماماً!"

الفصل الأول

جناحان من ورق

لم يكن احتكاك العجلات المعدنية بحصى الحديقة هو المنبّه
الوحيد الذي يعلن لزهور الحديقة أنني وصلت. لم أكن أحتاج
لساعة، فجسدي الذي اعتاد الثبات القسري صار يعرف مواعيد
الظل والشمس بدقة متناهية.

توقفتُ بكرسي المتحرك في بقعتي المفضلة، تحت أغصان
شجرة الصفصاف التي تتدلى كخصلات شعر خضراء طويلة،
تحميني من عيون المارة التي كانت تلاحقني دائماً بمزيجٍ من
الشفقة والتساؤل.

نظرتُ إلى يديّ الملتأتين فوق حجري بملل، فجأة.. لمحت شيئاً
غريباً. كان هناك غصنٌ منخفضٍ بشكلٍ غير معتاد، وكأنه
انحنى ليهمس لي بسر.

لم تكن ورقة شجر، بل كان ظرفاً أبيض صغيراً مربوطاً
بخيطٍ من الحرير، يتأرجح مع الهواء بخفة وكأنه يدعوني
للرقص معه.

بأنامل مرتجفة، التقطته. كانت الورقة باردة، لكن الكلمات
بداخلها كانت تنبض بحرارة غير مفهومة. لم يكن فيها اسمي،
لكنها كانت تخاطبني أنا:

"إلى الجميلة التي تظن أن العالم ينتهي عند حدود الكرسي..
انظري للأعلى، فالشجر لا يملك أقداماً، ومع ذلك يطال عنان
السماء. لا تحزني لأنك ثابتة، فالجبال ثابتة والكل يطمح
للوصول لقممها. ابتسمي، فالحياة تنتظر إشراقك لتبدأ."

توقفتُ عن التنفس للحظة. شعرتُ برعشة تسري في عمودي
الفقري، ليست رعشة برد، بل رعشة أملٍ نسيت خلف أبواب
اليأس لسنوات. من ذا الذي يراقبني؟ من ذا الذي رأى فيّ "قمة
جبل" بينما يرى الجميع فيّ "حطام إنسان"؟

التفتُ حولي بلهفة، كانت الحديقة خالية إلا من أصوات
العصافير. أخرجتُ دفترتي الذي لم يلمسه القلم منذ شهور،
وكتبتُ بخطٍ مفعم بالرجاء:

"من أنت؟ وكيف عرفتَ أن روحي كانت تطلب النجدة صمتاً؟"

رَبَطْتُ وَرَقَّتِي فِي نَفْسِ الْغَصْنِ، وَرَحَلْتُ.. لَكُنْتِي لَمْ أُرْحَلْ
بِكُرْسِيٍّ هَذِهِ الْمَرَّةَ، بَلْ رَحَلْتُ بِخِيَالٍ بَدَأَ يَنْسِجُ مَلَامِحَ لِصَاحِبِ
الرِّسَائِلِ.

تلك الليلة، ولأول مرة منذ الحادث، لم أنظر لرجليَّ بحزن قبل
النوم، بل نظرتُ إلى يديَّ.. اليدين اللتين ستردان على رسالة
الأمل غداً.

الفصل الثاني:

نبض بلون السماء.

تسلل ضوء الصباح من بين شقوق الستائر، لكنه لم يجد آريا غارقة في نومها الثقيل كما جرت العادة. كانت قد انتهت من غسل وجهها وارتداء ثيابها بمفردها، رغم الألم الذي اعتصر ذراعيها والجهد الذي تطلبه تحريك جسدها من السرير إلى الكرسي. كانت هناك "غاية" تتجاوز الألم اليوم، غاية جعلت من عجلات كرسيها تبدو أخف، ومن هواء الغرفة أقل خنقاً.

دفعت عجلات الكرسي بقوة، مخترقة ممر المنزل الطويل نحو الحديقة. كانت رائحة الندى وهو يعانق التراب تشبه رائحة البدايات، تماماً كالأمل الذي بدأ ينمو في زوايا قلبها. حين وصلت إلى بقعتها المفضلة تحت شجرة الصفصاف، شعرت بأن الزمن قد توقف.

كانت يدها ترتجف وهي تمدها نحو الغصن ذاته، تسأل نفسها بصمت: "هل كانت ورقتي مجرد حلم؟ أم أن الشجرة قررت أن تمنحني حياة أخرى؟"

لم تكن ورقتها وحيدة، بل وجدت مكانها ظرفاً مطويّاً بعناية
فائقة، لونه أزرق سماوي صافٍ، وكان قطعة من السماء
سقطت لتستقر بين أغصان الصفصاف الحزينة. فتحته بلهفة،
فقرأت كلماتٍ لمست روحها قبل عينيها:

"أنا لستُ منجماً، أنا فقط شخصٌ تعلم القراءة من لغة العيون لا
الشفاه. سألت من أنا؟ أنا 'الصدى' الذي قرر أن يعود إليك
أخيراً بعد طول غياب.

أما كيف عرفتُ نجدتكِ.. فمن يراقب الصفصاف طويلاً، يتعلم
كيف يسمع أنين الأغصان وهي تنحني. أخبريني يا آريا، ما
هو اللون الذي يشبه روحكِ في هذه اللحظة؟"

توقفت أنفاسها. "الصدى"؟ هل هو شخص يعرفها من ماضيها
قبل الحادث؟ أم أنه عابر سبيل يملك بصيرة تفوق بصر البشر؟
وبينما كانت تغرق في بحر تساؤلاتها، قطع حبل أفكارها
صوتٌ حاد ومألوف:

— "أريا! ما الذي يفعل بكِ هنا في هذا الصباح الباكر؟ ومنذ
متى وأنتِ تخرجين وحدكِ دون علمي؟"

التفتت آريا بكرسيها لتجد والدتها تقف خلفها، وعيناها تمسحان
المكان بشك. وبسرعة لم تعهدها في نفسها، دست الرسالة
الزرقاء في جيب سترتها، محاولةً رسم ملامح هادئة:

"أردتُ فقط أن أتنفس يا أمي.. أليس من حقي أن أشعر
بالشمس قبل أن تحرقها الظهيرة؟"

نظرت الأم إلى ابنتها طويلاً، لاحظت بريقاً في عينيها لم تره منذ ذلك اليوم المشؤوم، لكنها آثرت الصمت واكتفت بهز رأسها ومساعدتها على العودة للداخل.

في تلك الليلة، جلست آريا خلف مكتبها، المصباح الصغير يلقي ظلالاً دافئة على أوراقها. أمسكت القلم، وشعرت بأن الحبر الذي يسيل منه ليس إلا نبضاً كان محتبساً. كتبت:

"روحي اليوم تشبه لون رسالتك.. زرقاء، لكنها ليست زرقاة البحر الغارق، بل زرقاة السماء التي تتسع للطائرات الورقية والطيور المهاجرة. أيها 'الصدى'.. أخبرني، هل أنت حقيقة أم أنك مجرد وهم خلقتة حاجتي للفرار من هذا الكرسي؟"

طوت الورقة، ووضعتها تحت وسادتها، ونامت وهي تشعر لأول مرة بأنها لا تملك قدمين للركض، لكنها تملك كلماتٍ تستطيع أن تحلق بها فوق كل السياج.

الفصل الثالث

حارس الظلال.

أصعب أنواع الحركة حين تكون قعيداً. بالنسبة لآريا، لم تكن الساعات تمر، بل كانت تزحف كسلحفاة على جدار روحها. في تلك الليلة، قررت آريا أن تقلب الأدوار؛ لن تكون مجرد "مستلمة" للقدر، بل ستكون "شاهدة" على من يمنحها هذا الأمل.

أطفأت أنوار غرفتها تماماً، وسحبت كرسيها بصمتٍ نحو النافذة المظلة على الحديقة.

أسندت جبينها إلى الزجاج البارد، وراحت تراقب شجرة
الصفصاف التي بدت في ضوء القمر كحارسٍ أمينٍ يخبئ بين
أغصانه أسراراً لاتقال.

"من أنت؟" همست للزجاج، بينما كانت عيناها تتجولان بين
الشجيرات التي يداعبها النسيم.

مضت ساعات الليل بطيئة، حتى رأت ظلاً يتحرك بخفة. لم
يكن يتحرك كغريب، بل كصديق يعرف تفاصيل الحديقة جيداً.

توقف عند الشجرة، وبحركة هادئة وثق الظرف الجديد على
الغصن ذاته. في تلك اللحظة، انعكس ضوء القمر على وجهه
لثانية.. لم تره

بوضوح ، لكنها رأت قواماً شاباً وابتسامة رقيقة لمحها قلبها قبل عينيها، ثم اختفى في عتمة الليل وكأنه طيفٌ لا يريد سوى الخير.

في الصباح، لم تنتظر آريا الشمس لتشرق تماماً. خرجت بلهفة، وجدت ظرفاً بلون اللافندر (الخزامى)، وفوقه وُضعت وردة ياسمين صغيرة لا تزال تحتفظ بقطرات الندى. فتحت الرسالة، فكانت الكلمات تثبت في روحها حياةً جديدة:

"رأيتُ انعكاس وجهكِ خلف الزجاج ليلاً، وكنتُ أتمنى لو تفتحين النافذة لتشمي رائحة الحرية في الهواء. آريا.. العجز ليس في الأقدام، العجز هو أن نكف عن الحلم. اليوم، أريدك أن تكتبي لي عن حلمٍ واحد لم يكسره الحادث.

أخبريني عن القمة التي تريدين تسلقها بروحكِ، وسأكون أنا صدى صرخة انتصارك."

ضمت آريا الرسالة إلى صدرها، واستنشقت عطر الياسمين. لم تعد تشعر بالخوف من صاحب الرسائل، بل شعرت بأن هناك روحاً توأماً تحرسها من بعيد. نظرت إلى الأعلى، إلى أغصان الصفصاف التي كانت تراها دائماً "منحنية" بحزن، فرأتها اليوم "منحنية" لتعانق الأرض بتواضع الأقوياء.

أمسكت قلمها، وكتبت بصدق لم تعهده:

"حلمي ليس الركض، حلمي هو أن أشعر بأنني لست عبئاً على الأرض، بل جزءاً من جمالها.. تماماً كما فعلت رسالتك بقلبي اليوم."

الفصل الرابع

تراتيل خلف السور.

لم تكن كلمات آريا مجرد رد، بل كانت عقداً

جديداً بينها وبين الحياة. وضعت رسالتها تحت الصفايف
وانتظرت، لكن هذه المرة لم يكن الانتظار "سلحفاة تزحف"،
بل كان "شهاباً" يحرق أعصابها بلهفة.

في مساء اليوم التالي، وجدت آريا رداً لم تتوقعه. كان الظرف
ملفوفاً بخريطة قديمة لمدينتها، مرسوم عليها مسارٌ باللون
الأحمر يبدأ من بيتها وينتهي عند "هضبة الياسمين".

كتب "الصدى" في رسالته:

"آريا..

قرأتُ كلماتك فخيّل لي أن الأرض اهتزت تحت قدمي. تقولين
إنك تريدني أن تكوني جزءاً من جمال الأرض؟ أنتِ الجمال
الذي تعثرت به الأرض فجأة لتستفيق من سباتها.

لقد طلبت أن تكوني جزءاً من هذا العالم، وأنا اليوم أقبل
التحدي. العالم ليس وراء السور فقط، العالم يبدأ حيث تنتهي
مخاوفك. غداً، عند الساعة السادسة مساءً، حين يصبغ الشفق
السماء بلون البرتقال، انظري جيداً لغصن الصفصاف الثالث..
ستجدين 'بوصلة' لا تشير للشمال، بل تشير لقلبك.

لا تخافي من قيود الكرسي، فالعصافير تطير لأنها تثق في
الهواء، لا في أقدامها. هل تجرئين على الوثوق بي كما وثقتِ
بالصفصاف؟"

حبست آريا أنفاسها. هذه ليست مجرد رسالة، هذا "موعد".
لكن كيف لها أن تقابل شخصاً وهي "الأسيرة" خلف جدران
حماية والدتها؟

قررت آريا أن تخاطر. في اليوم التالي، وبينما كانت والدتها
مشغولة في مكالمة هاتفية طويلة، تسللت آريا نحو الشجرة. لم
تجد رسالة، بل وجدت "علبة ألوان مائية" صغيرة، وريشة
رسم ذهبية، ومعها ورقة واحدة مكتوب عليها:

"أنتِ لستِ عبئاً.. أنتِ اللوحة. ارسمي لي اليوم ما الذي تراه
عينك حين تغمضينهما وتفكرين في 'الحرية'."

كانت آريا تلمس ريشة الرسم بذهول، سمعت وقع أقدام خلفها.
لم يكن الصدى، بل كانت الخادمة التي اقتربت منها بفضول:

— "أنسة آريا، السيدة والدتك تسأل لماذا تقضين كل هذا
الوقت تحت هذه الشجرة الحزينة؟"

ارتجفت يد آريا وهي تخفي علبة الألوان خلف ظهرها،
وشعرت أن الخيط الرفيع الذي يربطها بالصدى بدأ يضيق
حول عنقها. هل ستفضح الخادمة سرها؟ أم أنها ستجد فيها
حليفاً؟

الفصل الخامس

ثقل القلب وخفة المفتاح

كنتُ أظن أن عجلات هذا الكرسي المعدني هي أثقل ما في هذا العالم، لكنني اكتشفت أن قلبي هو الثقيل. عشر سنوات قضيتها خلف زجاج هذه الغرفة، ولكن عندما رأيتُ شجرة الصفصاف وقرأتُ رسائل الصدى، شعرتُ بأني أستطيع التحليق حتى وأنا مقعدة.

استيقظتُ هذا الصباح بنشاط غير معتاد، وشعرتُ بخفةٍ تمكّني من الطيران وأنا جالسة. أمسكتُ الفرشاة والألوان وبدأتُ أتخيل شكل الحرية كما وصفها لي (الصدى)، فكتبت:

"أيها الصدى، سألتني كيف هو شكل الحرية؟ أظن أنها ضيفٌ يأتي خفيفاً، يجعلنا كخفة فراشةٍ تحلق فوق البراري الخضراء".

بدأتُ أنسج بريشتي خيالاً تاه عني منذ سنوات، وحريةً حُبست تحت عجلات هذا الكرسي؛ رسمتُ بيتاً صغيراً كان مظلماً، وفجأة انتشرت حوله أزهار اللافندر والأقحوان، وتسلفت إليه الشمس كخيوط ذهبي من النور الذي يدفع القلوب الباردة في أوقات الحزن.

وبينما كانت آريا منشغلة بنسج مشاعرها بالرسم، تسلل شخصٌ بخفة دون أن يصدر أدنى صوت. التفتت آريا خلفها لتجد ديانا تبتسم ابتسامة رقيقة، وقالت وهي تضع يدها على فمها:

"أنسة آريا! ماذا تفعلين في هذا الوقت الباكر؟".

ردت آريا بخوف وحاولت أن تخفي علبة الألوان واللوحة، لكن ديانا طمأنتها قائلة: "لا تقلقي أنستي، سرُّك في مأمن".

زفرت آريا أنفاسها كأنما أزيح جبلٌ عن صدرها وقالت:

"أشكركِ يا ديانا، أنتِ لا تعلمين.. لقد شعرتُ لأول مرة أنني على قيد الحياة منذ وقت طويل. هذه اللوحة هي سري الصغير، فحافظي عليها".

ابتسمت ديانا وقالت:

"لقد أصبح وجهك أكثر إشراقاً، أنا لم أركِ تبسمين هكذا منذ يوم الحادث، أظن أن روحك قد عادت إليك".

شعرت آريا بالاطمئنان لأنها وجدت أخيراً من يحفظ سرها
ويشاركها مشاعرها، فقالت:

"ديانا، هل يمكنكِ مساعدتي؟ أريد الذهاب إلى شجرة
الصفصاف لأضع هذه اللوحة، لكنني خائفة أن تكتشف والدتي
الأمر".

ردت ديانا بثقة:

"لا تقلقي، لقد غادرت السيدة ميري المنزل متوجهة إلى المدينة
ولن تعود قريباً".

تنفست آريا الصعداء، وأشارت لديانا كي تخرجها إلى الحديقة.
وصلا إلى الشجرة، وهناك وضعت اللوحة، وفجأة لمحت ظرفاً
ذهبياً بلون الشمس يتدلى من أحد أغصان الصفصاف. فتحته
بلهفة لتجد مكتوباً فيه:

"آريا.. سألتني المرة الماضية كيف ترسمين الحرية؟ أنتِ بالفعل بدأتِ برسمها؛ فخروجك من غرفتكِ يشبه خروج السجين من محبسه ليتنفس الحياة. أنتِ الآن تتنفسينها فعلاً. آريا، أنتِ لا تعرفين كم أنتِ جميلة.. روحك كانت تصرخ لتحرري. في المرة القادمة أريدك أن تنظري للقمر، إنه يشبهك؛ بعيداً، لكن الجميع يتمنى الوصول إليه".

انتهت آريا من القراءة وشعرت أنها خفيفة كنسمة صيفية تداعب الوجوه. ضمت الرسالة إلى صدرها بسعادة، وفجأة وجدت ديانا شيئاً ملقى على الأرض تغطيه الأوراق. التقطته ونفضت عنه التراب فإذا به "مفتاح".

نظرت آريا إلى ديانا بحيرة، وقبل أن تنطق بكلمة، سمعنا صوت أقدام تقترب. ارتبكت آريا وحاولت إخفاء المفتاح، فأعطته لديانا التي دسته في جيبها بسرعة خاطفة. التفتت آريا لتجد والدتها تقف خلفها بملامح متجهمة:

"آريا! ما الذي تفعلينه هنا في هذا الوقت المبكر أنتِ وديانا؟ ألم أقل لكِ ألا تقتربي من هذه الشجرة؟ ألم تكن هي سبب معاناتنا في الماضي والحاضر.

الفصل السادس

مفتاح قديم ، وعشر سنوات مضت

«آريا ، ماذا تفعلين هنا عند هذه الشجرة ، وأنتِ ياديانا ألم أحذرك قبلا ألا تخرجيها إلى هنا ، هيا خذيها والمرة والأخيرة التي تبقى فيها هنا ، من اليوم فصاعدا ستظلين في غرفتك .»

شعرت آريا وكأن كلام والدتها مثل الهاتف الذي أغلق في وجه من يتحدث فجأة ، فهتفت بنبرة غير معهودة عليها استجمعت فيها كل شجاعتها " أمي أنا لا أفهم لم لا تريدني مني معرفة الحقيقة ، هذه الشجرة هي من كانت سببا في أن أرى النور ، أنا شخص كان يموت ببطء لذا لن أتخلى عن معرفة ما حدث منذ عشر سنوات " .

نظرت ميري إلى ابنتها وقد رأت في عينيها إصرارا قويا في معرفة الحقيقة فأشارت لديانا لكي تذهب بها خارج الحديقة .

دفعت ديانا آريا باتجاه غرفتها كي تتجنب غضب سيدتها .

وفي الغرفة كانت تشعر بالضيق ،لما لاتريد والدتها منها أن تعرف الحقيقة ،هل يعقل أنها تعرف شيئاً عن الصدى أو عن الحادث الذي وقع قبل ١٠ سنوات ،نظرت آريا إلى ديانا وكأن ديانا كانت تشعر بها فأخرجت المفتاح من جيبها وأعطته لآريا والتي لمستته بيديها وقد شعرت بقوة ،كلحظة انتصار ولذة أن أخيرا ستعرف ما سبب لها هذه المعاناة والحرمان من الحق في الحقيقة ، الحقيقة المرة .

صمت قاتل كان يخيم على الغرفة بعد ذهاب ميري إلى غرفتها ، همست آريا لديانا حتى لا تسمع ميري ما ينويانه:

" ديانا هذا المفتاح هو كشف لغز الحادث وأشعر أنه سيكون الرئيسي في شفائي " .

أشارت ديانا لآريا أن تعطيها المفتاح ،فحصته ديانا عدة مرات وقد أحست بإحساس غريب سرى في جسدها كرجفة هزت كيانه فلاحظت أن هناك نقشا على المفتاح يشبه شجرة الصنصاف الموجودة في الحديقة فقالت "

آنستي انظري إلى النقش الموجود على المفتاح ألا يشبه شجرة
الصفصاف الموجودة في الحديقة".

آريا شعرت بأنها هناك شيئاً غريباً فهتفت بصوت ضعيف
يكاد يبدو مسموعاً " اه ، هذا المفتاح غريب جداً ، ولكن لماذا
كان عند تلك الشجرة ؟

ردت عليها ديانا " ربما كان ذلك المفتاح يحوي على صندوق
او درج مكتب لأظن أنه لباب انه صغير جدا ليكون ذلك ، لن
نعرف إن لم نجرب " .

وافقتها آريا ولكن توقفت للحظة تفكر كيف ستخرج من الغرفة
ووالدتها تراقب المكان كوحش يراقب كهفه خوفاً من هجوم
الصيادين .

وفجأة لمعت في ذهن ديانا فكرة توقدت كشرارة توهجت وسط
الظلام أضواء قلبا ذاب من الحزن " أنستي ،أنا لدي فكرة أنا
سأذهب لإلهاء السيدة ،وأنت اذهبي لمعرفة الحقيقة" .

لم توافق آريا على هذا الاقتراح ،خاصة وأنها تشعر بالأمان
لوجودها بجوارها

" لا ، أنا لن أذهب من دونك ،لقد بدأنا هذا الأمر وسننهيه سويا
".

ابتسمت ديانا، وامتزجت في عينيها نظرة حب بلمحة من
الحذر، ثم همست بصوت يرتجف من التأثر:

"سننجح أنستي، لأننا لم نعد مجرد سيّدة وخادمتها.. لقد كنتُ قبلكِ روحاً تذبذب في الظل، فكنتِ أنتِ العائلة التي احتوتني. لن ننهي هذا الأمر إلا ونحن معاً".

كانت كلمات ديانا كقطرات ندى باردة غسلت مرارة الخوف في قلب آريا. أمسكت آريا بيد ديانا، وضغطت عليها بقوة وهي تستجمع شتات شجاعتهما:

"هذا طريق بدأناه معاً، ولن يفرقنا فيه أحد. هيا بنا".

تبادلا نظرة أخيرة مشحونة بالإصرار، قبل أن تتسلل ديانا نحو الباب بخطوات وئيدة، لتستكشف الممر، تاركة خلفها صمتاً يسبق العاصفة.

دقائق ثقيلة مرت على آريا قبل أن تشير إليها ديانا أن المكان آمن، أمسكت عجلات الكرسي وتشبثت به ثم دفعته نحو الحلم، حلم الوصول للصدى.

خرجت آريا من الغرفة وهي تنتظر يمنا ويسرة لتتأكد أن والدتها لاتسمع ، كان صوت الكرسي وهو يحتك بأرضية المنزل الخشبية القديمة مثل قلب آريا الذي يكاد يخرج من بين ضلوعه .

دفعت آريا الكرسي حتى خرجت من المنزل وأصبحت على مقربة من الحديقة وديانا تنتظرها بعد التأكد أن ميري نائمة ولاتشعر بما يحدث .

سارت آريا بالكرسي وهي تدفعه ، وكل دفعة تمثل تحديا يسبق الزمن .

بعد دقائق من معاناة آريا في دفع الكرسي تحت الحصى والأعشاب الطويلة التي لم تقص منذ زمن ،وصلت آريا إلى الشجرة وأخرجت المفتاح وحاولت مطابقته بأي شيء ،وبعد معافرة ومحاولة لنبش أي شيء وجدت غصنا يلتف حوله مجموعة من الأوراق الجافة ،ابعدت الأوراق فوجدت تجويفا صغيرا ومنقوشٌ عليه نفس نقش المفتاح ،فشعرت أن هذا المفتاح قد يعود لهذا التجويف فأخرجت المفتاح ووضعته في التجويف ،وما إن فتحته حتى وجدت قصاصات ورسائل قديمة .

تناولت إحدى هذه الرسائل فوجدت رسالة مكتوبة بخط الصدى
نفسه :

" إلى آريا ،ابنتي الغالية التي سلبها المرض طفولتها ،هذه رسائل كتبتها لكي ،بعد عشر سنوات ستكونين قد وصلت لسن العشرين ،كل رسالة مكتوبة لك من سن الحادية عشر حتى سن العشرين ،اياك أن تشعرني أنك وحيدة أو أنه لأحد يحبك ،أنا سأكون بجوارك في ذاكرتك وفي قلبك ،قد لأكون حاضرا بجسدي لكن روعي ستحرسك ،والله لن يتركك ياحلوتي ،أنا أتخيل أنك كبرت وصرت فتاة يافعة وجميلة ،أتمنى أن تكبري وتصيري عروسا جميلا ،إياك أن تقولي لن أتزوج ياأبي أنت لست أقل شأن من أي فتاة في سنك ،وإلى أن نلتقي إياك أن تبكي ياغاليتي " .

ترقرقت الدموع في عينيها لابل في كيانها كله ،لطالما كانت تتمنى أن يكون والدها بجوارها ،ولكن سفره وبعده هنا ،كان يزيد حالتها سوءاً ..

وبينما كانت آريا غارقة في تأملاتها وتمنياتها بأن يكون والدها الغائب بجوارها ،قطع ذلك السكون صوت يشبه صوت خطوات شخص ما ،كان هذا الشخص الذي هو ديانا بعد أن تسللت بعيدا عن أعين ميري، نظرت آريا خلفها فوجدت ديانا تمسك بمقبض الكرسي وهي تحاول إبعاد آريا عن هذا المكان:

" أنستي ،يجب أن تعودي إلى الغرفة ،السيدة ميري خرجت من غرفتها وتبحث عنك ،سنتسلل من النافذة الخلفية "

لم تنبس آريا ببنت شفة ،بل اكتفت بهز رأسها وكأن حصولها على هذه الرسائل كان بمثابة كنز لها .

عادت آريا إلى غرفتها بمساعدة ديانا بعد أن تسللتا من النافذة الخلفية للغرفة المطلة على الحديقة ،حملت ديانا آريا وأدخلتها إلى الغرفة ثم حملت الكرسي المعدني وأدخلته إلى الغرفة .

رغم الصعوبة التي واجهتها في حمل آريا والكرسي ، إلا أن ذلك كان مثل حف حذاء الباليه على القدمين .

بعد دخولهما إلى الغرفة ، كان قلب آريا مثل طبول الحرب التي تفرع استعدادا لبدء المواجهة ، كذلك كان حال ديانا ولكن الحصول على هذه الرسائل كان جهدا يستحق العناء .

خرجت ميري من غرفتها ونزلت بسرعة على الدرج لتتأكد من حال آريا وديانا .

طرقت باب الغرفة فسمحت لها آريا مجيبة " تفضلي يأمي " .

دلفت ميرى إلى الغرفة فوجدت آرىآ جالسة على السرير وديانا
تجلس على طرف السرير ويبدو أنهما كانا يتبادلان الأحاديث
،فقالآ وكانها تتفحص المكان لترى إن كانا قد خرجا .

نظرت إلى آرىآ بعد أن انتهت من تفقد المكان بعينها وقالت "
آرىآ هل تريدن شيئا ؟

حاولت آرىآ أن ترسم ابتسامة على وجهها بدت هادئة " لا ،أنا
بخير شكرا لك أوى ."

ضيقآ ميرى عينها ،ولم تقآع بتلك الابتسامة الباهآة وبدا لها
أن شيئا ما قد حدث فقالت وهى تتحسس المكتب الموجود فى
الحجرة .

" ولكنى أحسست بحركة ما فى الرواق منذ قليل ."

سارعت ديانا إلى محاولة إخفاء ما حدث

" لا، ربما كان صوت الرياح، فلقد هز النافذة بعنف منذ قليل
".

استغلت آريا انشغال والدتها بالحديث إلى ديانا وأخفت طرف
الرسائل الذي كان واضحا بحركة سريعة تحت الوسادة .

خرجت ميري من الغرفة وهي لا تزال تشك فيهما، ولكنها
آثرت أن تؤجل المواجهة للصباح "

بعد خروج ميري تنفست الفتاتان الصعداء وكأنهما كانتا
تواجهان امتحانا صعبا .

أخرجت آريا الرسائل من تحت الوسادة ومسحت بيديها عليها
، كأنها تمسح أثرا أو تنفض الغبار عن ماض ظل طي النسيان
لعشرات السنوات

الفصل السادس :

الرسائل العشر .

مضت الليلة الماضية ثقيلةً كثقل الإنسان قبل الذهاب إلى
المعركة ، ولكنها مضت بما فيها من أحداث .

حل الصباح وأشرق شمس الذهبية على الوادي وعلى شجرة
الصفصاف التي كانت أوراقها مفردةً كفراشة خضراء ، كذلك
كان قلب آريا ثقيلاً في الليل ولكن مع بزوغ شمس الصباح
بأنواره وقطرات نداء التي تغسل القلوب .

تحاملت آريا على نفسها وبصعوبة جلست على الكرسي المتحرك ودفعتة حتى وصلت إلى المكتب الموضوع أمام النافذة ،وضعت الرسائل على المكتب ثم بدأت بفتح الرسالة الأولى .

" إلى ابنتي الصغيرة آريا ،أكتب لك هذه الرسالة لتقرأها وأنت في عمر الحادية عشرة ،سيكون مرّ عام على ذلك الحادث، لا أريد لذلك الحادث أن يسلب عزيمتك وإرادتك ،أنت قوية وشجاعة ونبيلة أعرف أنك لا تزالين صغيرة ولا تستوعبين ما حدث لك يا حلوتي ،أنا سأكون بجوارك أراقبك من بعيد وسأنتظر اليوم الذي تخطين فيه خطواتك الأولى من جديد " .

رجفة غريبة سرت في جسد آريا وكأنها قد أحست بشعورٍ غريب عليها .

تنهدت تنهيدةً أزاحت من على صدرها حملاً ثقيلاً وكأنها كانت بحاجة ماسة لتلك الرسائل .

فتحت الرسالة الثانية ولكنها مختلفة عن التي قبلها فقد وجدت قصاصةً صغيرةً ولكنها في الحقيقة صورة صغيرة ولكنها غير واضحة، في الصورة كان هناك امرأة ولكن وجه الصورة العليا منها ممزق وبجانب هذه المرأة فتاة صغيرة، قررت أن تفتح الرسالة لعل فيها شيء يخص هذه الصورة :

" إلى ابنتي الحبيبة آريا ، عندما تفتحين هذه الرسالة ستكونين قد كبرتِ عاماً آخر وازددتِ جمالاً ، أنا أتخيلكِ الآن وأنتِ تدفعين كرسيكِ الهزاز كطفلة تهز جسمها فرحةً بالعيد القادم بعد تعب وبالهدايا التي سوف تحصلين عليها ، وهديتي لكِ عندما نلتقي مجدداً يا حلوتي ، فأنا طرف الخيط المفقود ابحتي عني يا آريا ستجدينني حاضراً في قلبك وذاكرتكِ " .

لم تعثر آريا على شيء في هذه الرسالة ولكنها تساءلت من ذلك الذي يعرف تفاصيلها بهذه الدقة ، أيعقل أن يكون والدها ولكن والدها لا تعلم عنه شيئاً من قبل الحادث أصلاً ، فقد أخبرتها والدتها أنه ذهب في رحلة عمل واختفى هناك ، ولم يسمع أحد عنه شيئاً منذ ذلك الوقت .

لمست آريا الرسالة بأصابع مرتجفة ، ولكن هذه المرة كانت مختلفة فقد كانت تبدو مختلفة ورائحتها تبدو مألوفة . تبدو كرائحة شجر الصفصاف حين يلامسه ندى الفجر ، فتحت الرسالة بقلب مثقل :

" إلى ابنتي وفلذة كبدي آريا ، أنتِ الآن في الثالثة عشرة أتخيل أنكِ الآن أنهيتِ المدرسة الابتدائية وبدأتِ المرحلة المتوسطة . كم كنت أود أن أراكِ بزِي المدرسة تلعبين وتمرحين مع صديقاتكِ ، هل أنتِ حزينة ، لا يا صغيرتي لا أريد أن أرى الدموع في عينيكِ هذه الدموع تقطع قلبي ، أنتِ تستحقين أن تضحكي ويرى العالم أجمع ابتسامتكِ الصافية . لا تستمعي لمن يحبط عزيمتكِ فمن أجلكِ أنتِ سيضحك ويبتسم الكون ."

هذه الرسالة زادت شكوك آريا حول من يكون هذا الشخص ،لقد اختفى والدها منذ زمن هل الصدى شخصاً تعرفه؟ أم أن هناك شخصاً في هذا المنزل يخفي أشياء لا تعلم عنها شيئاً .

أرجعت ظهرها للوراء وكأنها تحاول تذكر شيء ما ،نظرت إلى الخط الذي كُتبت به الرسائل فوجدته خطأً غريباً عنها لم تره قبلاً ،ولا يبدو كخط الصدى في الرسائل السابقة .

فتحت الرسالة الرابعة وهذه المرة كانت رائحتها مألوفة تبدو كرائحة الياسمين المعتق .

" حلوتي ، أنتِ الآن في الرابعة عشرة ، أشعر بأنكِ قد ازددتِ
طولاً ، وأصبحتِ فتاةً واعدةً أشعر بأن هناك إعجاباً متبادلاً
بينك وبين ديف ابن الجيران ، هه احمرّ وجهك في هذه اللحظة
، إياكِ أن تخجلي يا صغيرتي إظهار الحب والاعتراف به ليس
عيباً ، الخطأ أن لا نظهر لمن نحبهم قدرهم عندنا قبل فوات
الأوان ، اذهبي واعترفي له أنا أرى أنه فتى جيد ويحبك كما
أنتِ وبصدق ، لا تخسريه يا حلوتي ."

شكوك كثيرة أصبحت تدور في خلد آريا . من هو ديف ؟ ، هل
كان هناك شخصٌ قد أُعجبت به وهي لاتذكر من هو؟ إذن أين
هو الآن ؟

دُفعت آريا الكرسي باتجاه النافذة لتتظر إن كان هناك شخص
ما يراقبها ، من هذا الذي يعرف أدق تفاصيلها لدرجة معرفته
بصبي هي ذاتها لاتعلمُ عنه شيئاً .

قررت متابعة قراءة بقية الرسائل عليها تكتشف شيئاً هذه المرة ،
فتحت الرسالة ثم قرأت:

" آريانا ،يا من يبتسم الكون فرحاً لك . كيف حالكِ يا
صغيرتي ؟ هل أنتِ بخير أرى أنكِ كبرتِ عاماً آخر وأصبحتِ
شابةً ،هذه المرة أريد أن أراكِ وأنتِ تخرجين من هذا السجن
الذي تعيشين فيه . اخرجي للهواء تنفسي الهواء العميق ودعي
الهواء يلفح شعركِ الأسود الحريري الذي يبدو مثل الليل
الساجي .

في هذه اللحظة أمسكت آريا بشعرها الأسود ونزعت ربطة
الشعر عنها وتركت شعرها الساجي ينسدل على كتفيها معطياً
جمالاً خاصاً .

في هذه اللحظة دخلت ديانا إلى الغرفة ووجدت آريا وشعرها
منسدل على كتفيها فقالت " أنستي ،ما أجملكِ أنتِ تبدين أكثر
جمالاً لم أرَ أحداً يملك شعراً جميلاً مثلكِ .

شعرت آريا بالسعادة لمديح ديانا لشعرها وأشارت لديانا بأن
تحضر المشط لتسرح شعرها.

أومأت ديانا موافقةً وهي تبتسم بسعادة لأنها شعرت أن آريا قد
تحررت وأصبحت أكثر إشراقاً، وهذا بفضل الصدى فقالت
وهي تمشط شعرها الأسود كالفحم كأنها تعزف لحناً " لم أرَ
شعراً بهذا الجمال من قبل، أنتِ تذكرينني بحكاية سمعتها قديماً
من جدتي عن فتاة كانت تدعى " جميلة الوادي " .

فتاة بيضاء البشرة وممشوقة القوام تملك شعراً طويلاً مثلكِ
، وهذا الشعر كان يصبح أجمل عندما تفرده على ظهرها .
ولكن في أحد الأيام بدأ شعرها الجميل يفقد بريقه كلما حزنت .
فذهبت إلى نهر قريب من بيتها ونظرت إلى نفسها ، ولكنها
فوجئت بشيء غريب " .

توقفت ديانا لثوانٍ قبل أن تستكمل الحكاية وبعدها قالت :

"نظرت الجميلة إلى النهر ولكنها فوجئت بأنها ترى فتاةً يلمع شعرها. نظرت الجميلة إلى شعرها ولكنه لم يكن يلمع مثل النهر، فعرفت أن هذا النهر هو بئر يرى ما بداخلها، فازدادت ثقتها بنفسها وأدركت أن الجمال لا يكمن فقط في المظهر الخارجي بل في جمال الجوهر".

وضعت آريا يديها على قدميها المفرودة على الكرسي، وكأنها أصبحت تشعر بأن القيد الذي حولها قد بدأ ينكسر وحل محله نور جديد وفجر جديد .

فهمت آريا المغزى من الحكاية وأن ديانا تقصد أن لا تنظر إلى حالها على أنها أقل شأنًا من أي أحد كامل، وأنها يجب ألا تفقد الثقة بنفسها مهما حدث، فابتسمت ابتسامةً توحى بالثقة وكان آريا المنكسرة قد رحلت وحل محلها آريا القوية الصامدة المشرقة والمقبلة على الحياة بروح جديدة .

نظرت ديانا إلى آريا وقد شعرت بأن وجه آريا أصبح أكثر إشراقاً أو بالفعل روحها هي التي أصبحت أكثر إشراقاً ،فتركتها بهدوء وغادرت الغرفة .

بعد ذهاب ديانا فتحت آريا الدرج وأخرجت الرسالة الخامسة وهذه المرة فتحت الرسالة وهي تشعر براحة كبيرة سرت في جسدها كأن الغشاء الذي كان على روحها أُزيل.

فتحت الرسالة وقد كُتِبَ فيها:

" آريا ،ابنتي وعزيتي الصغيرة .إليكِ أكتب هذه الكلمات لتفويض روحك بالحرية التي ظلت محبوسةً في هذا الكرسي .أريدك أن تخرجي إلى الحديقة وتري ضوء الشمس ، فضوء الشمس يا ابنتي هو أعظم شيء في هذا الكون . إنه نعمة لا يقدرها إلا المحروم ،وأنتِ يا صغيرتي حُرمتِ منها " .

"قررت آريا أن تنظر إلى ضوء الشمس؛ ولأول مرة تشعر بدفء يملأ قلبها، كأن غشاء روحها قد انقشع عنه الغمام"

الفصل الثامن

خلف صدى الرسائل .

«أشرقت الشمس وحلت بسلاسلها الذهبية على الوادي كالندى الذي يغسل القلوب، وكذلك كان قلبُ آريا الذي كان ينتظر الرسائل كبركانٍ متوهجٍ لمعرفة الحقيقة .

تحاملت على نفسها وجلست على الكرسي ثم فتحت الدرج لتستكمل قراءة بقية الرسائل وتحسست الرسالة السادسة وما إن فتحتها حتى أحست بأن الخط الذي فيها مختلف عن بقية الرسائل، فتحتته ثم بدأت تقرأ :

" يا آريا هل تظنين فعلا أنني قد رحلت عن هذا العالم ،أنا روح ساكنة فيك وفي شجرة الصفصاف ،أنا الأمل الذي غاب عنك لسنوات ،أنا مثل لوح ثلج جاف رفض الذوبان ،أنا أنت يا آريا...أنا عمرك الذي سُرق منك لسنوات خلف حاجز هذا الكرسي المعدني .تحركي يا آريا وأري للعالم كله أنك تستطيعين.. تعالي إليّ فأنا الحب الذي سيشفيك ويعيد روحك الذابلة، ستجديني عند العشر سنوات الذابلة .أريدك أن تبني عشر سنوات أخرى ،ليس فيها إلا الأمل والعزيمة".

مشاعرٌ عديدة اجتاحت آريا؛ من هذا الحب؟ وكيف يعرفها هكذا ،بل إنه يعرف روحها وكأنه جزء لا يتجزأ منها ؟

وفي أوج قراءتها الرسالة فتحت الرسالة السابعة لتكون ردا على سابقتها، فقرأت:

" ري .. هل تذكرين هذا اللقب الذي كنت تحبينه وكان محببا لروحك؟ أم تذكرين عهد العشر سنوات؟ أننا سنلتقي حتى لو فرقتنا الأيام فقلوبنا أقرب لأننا مقدران روحيا لبعضنا."»

«تجمدت الدماء في عروقها وشعرت كأنّ أطرافها تصرخ قبل قلبها، من هذا أيعقل أنه فتىّ كانت معجبةً به قبل الحادث وابتعد بعدها، أيعقل أنه يعرف شيئا عن الحادث؟

وبلهفةٍ لاتحتمل الانتظار فتحت آريا الرسالة الثامنة، ولكن ماكان مكتوبا فيها كأنه ماء مثلج وقع على رأس آريا

" ري ... أنت تعتقدين أنني بعيد، لكنني أقرب مما تتخيلين، انظري ستجديني بين ثنايا قلبك لم أرحل، شوقي للقائك لم يعد يحتمل .تعالى... اركضي إلى ... نعم أنت تستطيعين!"

رغبة عارمة اجتاحت آريا وكأن هناك يدا خفية تدفع قدميها ،حاولت بكل مaldiها من عزم أن تحاول الوقوف على قدمها ولكنها لم تستطع .. حاولت ثانية ولكن هذه المرة حدث شيء غريب ،فقد تحرك أحد أصابع قدمها اليسرى .

نظرت إلى قدمها وهي لاتصدق أن هذا حدث ،هل فعلا تحرك أحد أصابع قدمها ،هل كان لهذه الكلمات مفعول المعجزات كما قال ،هل كل ماكان عليها فعله هو تصديق الصدى الذي في قلبها ،أم هذا هو صدى الرسائل .

ولم تنتظر آريا كثيرا فتحت الرسالة التاسعة وقد كانت غريبة الشكل فهي ليست ورقة بيضاء كتب فيها كلام أو حبر من ورق ،بل إنها كانت على شكل ورقة الصفصاف وكأنها كتبت بأناها الحزينة التي تعزف على شاطيء الخليج في البحر .

" آريا ،آريانا ،ري . يا حبا طوته السنين ويا قلبا يتشوق للقياك
الثانية قبل الغد ،أنا معزوفتك الحزينة أنا شجرة الصفصاف
التي شهدت على كل شيء .أنا الشاهد الصامت في حكايتك
،أريدك أن تقُدمي إلي ،أنا ظل همس في قلبك بالبقاء .تعال إلي
يا جميلة الوادي يا عروس شجرة الصفصاف ."

أفكار عديدة جالت في خلد آريا ،من هذا ولما يرى كل هذا
الأمل فيها ،في حين أن ذاتها لم تر الأمل ،بل ظنته مقيدا تحت
عجلات هذا السجن الذي تجلس عليه .

سارت بالكرسي ووقفت به أمام النافذة ،علها ترى ظلا أو
خيالا يريح قلبها الحائر ،وفي لحظة من طرفة عين في الثانية
لمحت خيالا كأنه أحد يرتدي عباءة طويلا كعباءات الفرسان
،ولكنها لم ترى وجهه .

قبضت آريا على ذراعي الكرسي كمن يقبض على جمر من نار، وتحركت وكلها حماس ولهفة لمعرفة من هذا الذي يراقبها ويعرف أدق تفاصيلها.

وبعد عناد و عفارٍ في إخراج نفسها والكرسي على حصى الوادي وعشبه الطويل، وصلت إلى شجرة الصفصاف، ولكنها لم تر أحدا وكأنه فص ملح وذاب .. وتابعت البحث عن أي شيء فوجدت مفتاحا كبير الحجم، غريب الشكل واقعا قريبا من شجرة الصفصاف من الجهة الشرقية .

أمسكت آريا بالمفتاح وتحسست هذا المفتاح، ولكن وجعا في قدمها ورأسها أصابها بمجرد أن لمست المفتاح، أمسكت آريا من شدة الألم، وكان أحدا ينخر بمسمار في ثنايا جمجمتها .

وفي أقل من ثانية بدأت تتراءى إلى عقل آريا ،مشاهد قديمة
من أناس وصراخ وأحد يقول ،ابتعدي ياآريا لاتقتربي، إن
اقتربت سيكون مصيرك المعاناة ... لا حب طوته السنين
،مايكل .. دوري .. أرجوحة .. أبي ... سيرى ... أنا لأزال
حياة ،قتل .. ميرى ... ديانا .. بيت .. سحر .. اخرجى ..
افرحى وعيشى .. وكونى بهجة الوادي ومتعته".

صرخة قوية خرجت من فم آريا جعلت الدموع تنزل من
عينها مثل الغيث الذي انقطع لسنوات وجعل البلاد في حالة
جفاف ،وكان أحدهم أخرج جسدها وأعطاهها جسدا جديدا .

وفي هدوء تام استسلمت آريا لفقدان الوعي و جسدها يتصبب
عرقا ،خرجت على أثرها ديانا وميرى من خنبا لترى ابنتها
،وفوجئت بأنها فاقدة الوعي ونائمة على الكرسي ،وجسدها
يتأجج من الحرارة .

نظرت ديانا إلى سيدتها آريا وهي نائمة على الكرسي في حالة ضعف واستكانة تامة وكأنها قد بذلت جهدا أكبر من مقدورها، فلم تنتظر وحملتها تحت أعين ميري التي قالت :

" ما الذي أصابها وجعل جسدها واهنا بهذا الشكل؟ ،ومن الذي أوصلها إلى هنا؟ "

ديانا متفاجئة ،أهذا هو كل مايهما كيف وصلت إلى هنا ؟ ،أليست قلقة على ابنتها وضعفها ووهنها في هذه الحالة ،فصاحت ديانا بغضب خارج عن المألوف:

" هل هذا كل مايهمك ،أنت فعلا أم أشك في ذلك ،أنت تنين نزع من قلبه الرأفة ،ولكني لن أتركها بل سأرعاها حتى تستعيد وعيها " .

نظرت ميري إلى ديانا وهي لاتصدق هل هي فعلا من تعمل عندها أم العكس ،ولم تحرك ساكنا سوى أنها جرت الكرسي بعد أن حملت ديانا آريا من عليه .

وصلت ديانا إلى الغرفة ووضعت آريا على السرير ،وقبل أن تضعها ،لاحظت شيئا ما على حجر آريا عندما حملتها . مفتاحا كبير الحجم وغريب الشكل ،وضعته تحت وسادة آريا ودثرته جيدا ،فقد شعرت بأن هذا هو ماجعل آريا تفقد الوعي .

خرجت ديانا من الغرفة وذهبت لتحضر منشفة ومياها باردة لتصنع كمادات لآريا حتى تستعيد وعيها .

وقبل أن تعود ديانا ،قدمت ميري إلى الغرفة وهي تجر الكرسي كمن يجر خيبة أمله وهو يسير ،ثم وضعته في إحدى زوايا الغرفة وذهبت للجلوس بجانب سريرها ثم قالت كلاما ممزوجا بالاحتقان:

" تريدان أن تصيري حرة يا ابنة سيرى ،لن يحدث لن تري
النور ولن تعرفي ظله ،سأحبسك في هذه الغرفة كمن يحبس
الطير في قفص منيع ."

تمت ميري بهذه الكلمات قبل أن تستعيد آريا وعيها
وتسمعها، وبينما هي كذلك كانت ديانا على مقربة من الغرفة
وسمعتها وهي تدب هذا السم في أرجاء الغرفة فقالت في
سرها:

" آه .. ياميري أود أن أريك حجمك ،ولكن ما يهم الآن هو
آريا ،أيتها العجوز ."

نزعت ديانا هذا الجانب عنها ورأت أن أمر آريا هو الجوهر
الآن ،فدخلت إلى الغرفة بالبتسامة صفراء نجحت في رسمها .

وضعت طبق الماء والكمادات على المنضدة ثم ذهبت واقفة
قبالة السيدة وقالت:

" سيدتي ،يمكنك الذهاب إلى غرفتك لتستريحى وأنا سأعتنى
بأرياء، وسأناديك عندما تستفيق "

لم تشعر ميري بالراحة لديانا، ولكنها قررت أن تخرج لأنها
تشعر ببعض التوعك، ولكنها لاتزال تفكر لماذا ذهبت آريا إلى
تلك الشجرة. وماذا كانت تفعل هناك.

خرجت ميري من الغرفة تحت أنظار ديانا التي كانت تراقبها
،أخرجت تنهيدة طويلا كمن كان يتنفس تحت الماء بلا أكسجين

ذهبت ديانا وأحضرت طبق الماء البارد والمناشف التي صنعتها ،وبدأت تعصرها ثم وضعت واحدة على جبين آريا الساخن كاللهب ،ومع كل مسحة كانت آريا تأن كأنها تخرج من جسدها سموما كقيد ذلك الكرسي ،ومن بين تمتاتها :

" لا ،تيم ،أمي ،أبي لا تتركني ... شجرة ... ورد .. سر ..حب طوته السنين"

الموقف الآن مهيب ديانا تستمع إلى أنات وشهقات آريا وهي لا تستطيع فعل شيء لها ،فقالت بصوت يملأه الهدوء والسكينة :

" لا تخافي يا صغيرتي ،أنا سأكون جوارك ولن أدع أحدا يمسك بسوء ،وسرك هو مدفون في قلبي ،ولن يصل إليه أحد ."

وما إن لبثت ديانا قالت هذه الكلمات حتى رأت آريا وقد بدأت تفتح عينيها بضيق ثم نظرت إلى ديانا وقالت:

"ديانا، المفتاح ... أين هو؟ ... الشجرة".

ابتسمت ديانا ابتسامة هادئة وكأنها تطمئن آريا ألا تقلق، سرها في مامن :

"اهدئي أنستي، المفتاح موجود هنا تحت الوسادة ولن يعرف مايفتح إلا أنت".

زفرت آريا أنفاسها مرتاحة وهانئة؛ لأنها شعرت بأن ديانا هي ليست مجرد مربية .. هي أختها غير الشقيقة، هي توأم روحها. هي من أرسلت لها الحياة كبلسم شافٍ للجروح التي تركتها عجلات الكرسي والعشر سنوات والامها.

مدت ديانا أصابعها تحت الوسادة وبحركة خاطفة أخرجت المفتاح وأعطته لآريا التي أمسكته وقد شعرت بأن كهرباءً سرت في جسدها وكأنها قد عادت بذاكرتها عشر سنوات إلى الوراء ،من لحظة الحادث وحتى الآن .

هنا نظرت لديانا وقالت :

" ديانا ،أنا أشعر بأن هذا المفتاح هو سر كبير ،وليس في هذه الغرفة بل خارج حدودها " .

بنظرات واثقة وكلمات مختصرة ردت عليها ديانا :

" وأنا معك حتى اللفظ الأخير ،حتى نعرف من هو سبب الحادث ونذهب به للسجن . ولكن قبلها لنرى مايفتح هذا المفتاح ،أرى من حجمه الكبير وشكله الغريب ،أنه يفتح باب قبو أو خزانة قديمة جدا من عشرات السنوات " .

أخذت أريا تدير المفتاح على كل جوانبه ،حتى وجدت أن له شقا صغيرا كأنه يفتح ،ففتحت واذ به يحوي ورقة صغيرة ،كتب عليها " الرسالة العاشرة،حينما تصلين لعمر العشرين " .

فتحت الورقة الصغيرة وبدأت تقرأ:

" لقد فتحتها ،الرسالة الأخيرة هذا يعني أنك في عمر العشرين ،أنا serry موجودة ومحبوسة وأحتاج إلى الحرية ،حرريني ياري وحرري عنقك من هذا الحادث . حرري قدميك المقيدتين والمحبوستين تحت هذا السجن اللعين " .

نظرت آريا إلى ديانا وكان وجهيهما قد أصابته نفس الصدمة
،ولازال صدى كلمة حرريني ،وسيري يتردد في صدى عقل
آريا ليخبرها بأن شجرة الصفصاف هي شاهد صامت على سر
كبير .

الفصل العاشر:

ومضاتُ من ذاكرة خفتت.

نظرت آريا إلى ديانا وكان وجهيهما قد أصابتهن نفس الصدمة،
ولازال صدى كلمة "حرريني" ، واسم "سيري" يتردد في عقل
آريا ليخبرها بأن شجرة الصفصاف هي شاهد صامت على سر
كبير.

مدت آريا يدها المرتجفة ووضعت المفتاح في الباب وأصدر صوت "تكة" خفيفة تشبه احتكاك قلبي ديانا وآريا ببعضهما، مدت آريا لتفتح الباب وإذ به يُفتح.

وبعد دخول الغرفة، فوجئت آريا برائحة الأشياء القديمة مثل الغبار المعتق ورائحة الصفصاف التي تنتشر في المكان وكأنها ملاك حارس تخبرها بأن من حقها معرفة ما حدث لها.

كانت الغرفة قديمة مليئة بالأثاث؛ خزانة قديمة وطاولة تتوسط الغرفة، وعلى هذه الطاولة وُضع تسجيل قديم وبجانبه ورق قديم كأنه جزء من صحيفة أو رسائل قديمة. أمسكت ديانا بمسند كرسى آريا ثم دفعتها حتى أصبحت أمام الطاولة الموضوع عليها ذلك التسجيل القديم. مدت آريا يديها وأدارت شريط التسجيل وإذ بصوت رخيم ملأ الغرفة كأنه صوت اهتزاز الرياح بشجرة الصفصاف حينما تلامسها الرياح:

"إلى آريا.. حبي الأول والتي لم ينبض قلبي لسواها، أنا قريب منك لا تحزني مني يا آريا، لقد كنتُ مجبراً بالابتعاد عنك، لكنني أعدك بأنني سأعود لأكشف لك الحقيقة. أنا فارسك يا آريا، أنا من يكنّ لك الحب، أريد رؤيتك تحت ظل شجرة الصفصاف حينما يكون القمر بدرًا".

انطفأ التسجيل، وذكريات عديدة جالت في أذن آريا؛ من هذا الصوت؟ وكيف يعرفها هكذا؟ وإن كان فارساً فلماذا تركها؟ تداخلت ذكريات عديدة جالت في ذهنها من هذا الصوت، مرّت كثوانٍ وكأنها رأت شريط حياتها يمر أمامها؛ رأت فتاة تركض بسعادة بحصان، وهناك ظلان يقفان بجانبها؛ أحدهما يبدو ظلاً ودوداً والآخر كأنه يراقب بمكر.

وفي أقل من ثانية: سقوط، وصراخ، وحصان يركض، وفي خضم ذلك كله، كان هناك صوت دافئ يقول: "لن أتركك يا آريا، أنتِ عمري ومستقبلي الذي لن ينير إلا بك.. سنعقد زفافنا بعد عشر سنوات عند هذه الشجرة".

فجأة، انطفاً تسجيل عقل آريا وكأنه يثبت أن ذاكرتها قد عادت، ولكنها فضلت أن يبقى هذا سراً. ثم نظرت إلى ديانا وقالت لها: "ديانا.. لقد اتضح كل شيء، لقد بدأتُ أجمع خيوط الماضي، وسنصل لنهاية هذه اللعبة قريباً. لن يهدأ لي بال حتى أعرف من هو ذلك الصدى؛ هل يمنحني الأمل، أم يخدعني؟".

الفصل الحادي عشر

«الحقيقة هل هي قريبة؟»

خلف شباك الحقيقة، تقف آريا أمام نافذة غرفتها تراقب الوضع كجندي يراقب حركة عدوه بحذر.

تناولت آريا الصحيفة التي خبأتها بين طيات ثيابها، ثم رفعتها إلى وجه القمر كأنه حبر سري يخفي ماضياً ظل طي الكتمان لعشرات السنوات. فتحت آريا الصحيفة، وقد انبعثت منها رائحة عتيقة تشبه ورق الصفصاف، لتجد خيراً يتصدر العناوين: "قدرٌ أم مكيدة؟"؛ هكذا كان العنوان، وتحتة صورة لثلاثة أطفال.

[OBJ]

صدمت آريا عندما رأت صورة هؤلاء الأطفال، وخاصة تلك الطفلة التي تقف في المنتصف.. ولكن الصدمة الأكبر كانت حين أدركت أن تلك الفتاة التي تتوسط الوالدين هي آريا نفسها!

تساءلت في ذهول: "متى التقطت هذه الصورة؟ ومن هذان
الولدان؟ أيعقل أنهما من ظهرا في ذاكرتي؟"؛ لكنها لم تستطع
تذكر اسميهما. تابعت القراءة، فاستوقفه تفصيل مثير: «ديفيد،
تيموثي، وآريا.. أصدقاء طفولة من عائلات ثرية. ما سبب هذا
الحادث المأساوي الذي أفقد الفتاة قدرتها على الحركة؟».

في تلك اللحظة، سرت برودة غريبة في قدميها، وكأنها
استرجعت للتو مرارة السقوط من فوق ظهر الحصان، وما تلاه
من معاناة وفقدان للذاكرة، وشعور بالحرمان من الحق في
الحياة.

مرت ثوانٍ ثقيلة وهي تستحضر ألم العجز على كرسيها
المتحرك، وخوفها من نظرات الآخرين في المدرسة، لكنها
كلما نظرت إلى وجه الصبي الذي على يسارها في الصورة،
شعرت بدفء وحنين غامضين، كأن قلبها يعرف رائحته تماماً.

وفجأة، وسط لحظة التجلي تلك، لمحت ظلاً يتحرك عند شجرة
الصفصاف. قبضت آريا على مقبضي كرسيها بقوة حتى
ابيضت يداها واحتقنت الدماء في عروقها، وباتت أكثر توقاً
لمعرفة صاحب هذا الخيال؛ هل يمنحها الأمل أم يسرقه منها؟

تحاملت على عجزها، وجرت الكرسي بخفة تشبه حركة "حذاء
الباليه"؛ خشية أن يشي بها صرير العجلات على الأرضية
الخشبية. وبعد عناءٍ مرير في تجاوز عتبات المنزل، أصبحت
على مقربة من الشجرة، حيث وقف الظل تحت ضوء القمر. لم
ترَ وجهه، لكنها شعرت بروحه تناديها.

هتفت آريا بصوت هز أركان الوادي:

"من أنت؟ لا تظن إنني أخافك، لم أعد تلك الفتاة المرتعدة خلف
الزجاج، أنا الآن أقوى مما كنت.. فإن كنت شجاعاً، فأظهر
نفسك!"

اقترب الفارس المجهول حتى صار أمام عينيها مباشرة، لكنه أبقى وجهه في العتمة، وهتف بصوت رخيم يشبه ذلك الصوت في "التسجيل":

"وهذا ما كنت أتمناه؛ الآن أنتِ تستحقين لقب آريا. لا تزالين كما كنتِ، فتاة قوية لا يقهرها المستحيل. صدقي أن الحادث كان مكيدة، لكنها ليست الحقيقة كاملة، فهناك أحجية ناقصة ابحثي عنها داخل هذا المنزل.. إلى اللقاء، وتذكري عهدي لك: سنقيم زفافنا تحت ضوء القمر".

اختفى الفارس وتلاشت كلماته كضوء اليراع، لكنه ترك آريا هذه المرة وهي تشعر بأنها باتت على أعتاب الحقيقة التي غُيبت عنها لعشر سنوات.

الفصل الحادي عشر

الحقيقة المقطرة .

«لا تزال هناك أحجية ناقصة في هذا المنزل.. وتذكّري، سأفي بعهدي لكِ بأن نُقيم زفافنا تحت ضوء القمر».

تردد صدى كلمات الفارس في ذهن آريا، التي هجرها النوم تلك الليلة؛ فقد باتت كلماته تطاردها، وشعورٌ غريب يهمس لها بأنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من كشف لغز الحادث الذي وقع قبل عشر سنوات.

استندت برأسها إلى حافة السرير، تعبتُ بإحدى قصاصات الورق المرفقة بالجريدة. فتحتها ببطء لتجد صورة قديمة باهتة لفتاة لم تتجاوز الخامسة، تقف بجانب امرأة ترمقها بنظرات تفيض حناناً.

تسمّرت نظرات آريا فوق وجه المرأة؛ ثمة ألفة غريبة في
ملامحها، إنها نسخة طبق الأصل من "ميري"!

استبدت بها الحيرة وتساءلت في سرها: "من تكون هذه السيدة؟
ولم تشبه ميري إلى هذا الحد؟ أيعقل أنها هي؟ لكن.. خصلات
شعر هذه المرأة تميل للبني، بينما شعر أمي حالك السواد
كشعري تماماً!".

وفي ذروة شرودها، قطع صمتَ الغرفة طرُقٌ خفيف على
الباب، وصوت ديانا ينادي: "آنستي، هل أنتِ مستيقظة؟
أيمكنني الدخول؟".

بسرعة وارتباك، دثّرت آريا الصورة تحت وسادتها؛ أثرت
الكتمان حتى عن ديانا.

دلفت ديانا الغرفة، ولم يغب عنها ملاحظة التوتر الشاحب على وجه آريا، فابتسمت بهدوء وهي تضع صينية الطعام: "صباح الخير، كيف حالك اليوم؟".

حاولت آريا مواصلة ارتباكها بالانشغال بالطعام، وقالت بصوت متقطع: "أنا.. أنا بأفضل حال، لقد جئت في وقتك، فأنا أتضور جوعاً".

أومأت ديانا لها لتبدأ، ولم تكذب تُنهي جملتها حتى كانت آريا قد اندفعت تأكل بنهم غريب، وكأنها لا تسد رمق جسدها فحسب، بل تُطعم روحاً أرهقها البحث.

ومع كل لقمة، كانت عيناها تلمعان بدموع مكتومة، وكأن مذاق الطعام أيقظ في قلبها ذكرى بعيدة، رقيقة وعذبة كـ "ربيع أزرق" رحل قبل أوانه.

نظرت ديانا إلى آريا التي تتناول الطعام وكأنها قد افتقدت هذه
السعادة التي تشعر بها الآن وهي تراها، وكان رسائل الصدى
قد كان لها مفعول السحر عليها.

أخذت ديانا صينية الطعام وانسحبت بهدوء، تاركةً لآريا
مساحتها الخاصة؛ فهي تعلم جيداً أن ما مرت به آنفاً لم يكن
يسيراً.

بعد رحيل ديانا، أخرجت آريا الصورة التي دثرتها تحت
وسادتها وعاودت معاينتها؛ لعل ثمة خيطاً خفياً يربط تلك
المرأة الغامضة بميري.

قلبت الصورة هذه المرة، فوجدت كلماتٍ كُتبت بحبرٍ يفوح
برائحة الصفصاف

: "إلى آريا، حبيبة قلبي وعمري الممتد.. حين تصلكِ هذه الصورة ستكونين قد غدوت فتاةً يافعة. أريدك أن تعلمي يا صغيرتي أنني لم أترككِ طوعاً بل أُجبرتُ على ذلك، ولو خُيرتُ بين كنوز العالم، لاخترتكِ أنتِ يا ري".

تسمرت عينا آريا عند التوقيع المكتوب بارتعاش في أسفل الورقة: "سيري".

هنا تشابكت الخيوط في عقلها؛ أيعقل أن "سيري" هي ذاتها صاحبة الرسالة العاشرة التي قالت: "أنا سيري.. أنا محبوسة، حرريني وحرري قدميكِ الأسيرتين منذ ذلك الحادث"؟

سرى في روح آريا صقيعٌ غريب، وكأن نداء سيري يخترق جدران قلبها لتخبرها بأنها سجينه في مكانٍ ما، وأن حياتها طوال السنوات العشر لم تكن سوى كذبةٍ كبرى. زاد ذلك من عزمها على تبديد "غمام" ميري، لكنها أدركت أن الحقيقة يجب أن تُطبخ على نارٍ هادئة.

قبضت آريا على الصورة كمن يتمسك بروحه وسط الظلام،
وتحاملت على وجعها لتجلس على كرسيها المتحرك، وهي
توقن أن هذا العجز لابد أن ينتهي بمجرد انقشاع الضباب.

جلست آريا على كرسيها وهي تدسُّ الصورة في جيبها بعناية،
كمن يحرس كنزاً عزيزاً. جالت بنظراتها في أرجاء الغرفة
وكانها تبصرها للمرة الأولى، منقبةً عن أي أثرٍ يقودها إلى
"سيري".

بعد لحظات من البحث، وقع بصرها على ملاءةٍ تغطي لوحةً
ضخمة؛ سحبتها آريا بكل ما أوتيت من قوة، وما إن سقط
القماش حتى تجمدت الدماء في عروقها. كانت لوحةً لثلاثة
أطفال، نسخةً طبق الأصل من تلك الصورة التي رأتها في
الجريدة، وكانها القطعة المفقودة في أحجية الفارس.

تصارعت الأسئلة في عقلها:

"ماذا يعني هذا؟ ولماذا رُسمت هذه اللوحة هنا بالذات؟ هل هؤلاء الأطفال هم لغز الفارس؟". تساءلت وهي تقترب بكرسيها الحديدي، تلمست سطح اللوحة بأصابع مرتجفة، وفي تلك اللحظة، شعرت بأن شيئاً ما في ذاكرتها قد استقام.

حاولت آريا إزاحة اللوحة، وهنا كانت الصاعقة؛ لقد عثرت على بابٍ لمخزنٍ خلفها! كيف لم تلاحظه من قبل؟ هل كان ألمها هو الغمام الذي حجب رؤيتها؟ تحسست مدخل المخزن وكأنها تنبش في قبورٍ ممنوعة داخل زوايا الذاكرة.

لاحظت أن حواف الباب نُقش عليها شجر الصفصاف، حاولت دفعه لكنه كان موصداً بإحكام. فجأة، توقدت في ذهنها لمعة؛ تذكرت ذلك المفتاح الكبير الذي وجدته مع الرسائل، ربما هو مفتاح هذا اللغز. أدارت عجلات كرسيها بلهفة نحو المكتب القابع عند النافذة، وفتحت درجها تتناول المفتاح وكأنه مفتاح لتابوتٍ قديم.

وضعت آريا المفتاح في قفل الباب، وما إن أدارته حتى أصدر
"تكة" خفيفة، وكأنها عثرت على مفتاحٍ لأحد كنوز القراصنة
المخفية.

في تلك اللحظة، كانت آريا تستنشق رائحة خشبٍ معتق، رائحةً
مألوفة شمّتها في دهاليز ذاكرتها قديماً؛ مما جعلها تتردد لثانية،
وهي تشعر بأن الحقيقة باتت على بُعد خطواتٍ معدودة.

دفعت آريا الباب، فواجهها ظلامٌ دامس يشبه الظلمة التي كانت
تعيشها قبل وصول رسائل الصدى. غبار، أثاثٌ قديم، وفي
المنتصف.. سريرٌ ناصع لم يلمسه الغبار، بقي شاهداً على
خطبٍ ما حدث هنا منذ زمن غابر.

اقتربت آريا بكرسيها وتحسست السرير، وكان رائحته تسالت
إلى قلبها قبل أن يدرك عقلها ماهيتها. لكن الصدمة الأكبر
كانت في ذلك النقش المحفور على خشب السرير: اسم "آريا"،
كشاهدٍ صامت على ملكيتها للمكان.

نظرت آريا إلى الوسادة، وسرت في جسدها رجفةً هزت
كيانها؛ فكلما اقتربت من حل لغز السنوات العشر، شعرت بأن
جسدها يرتجف خوفاً من الحقيقة.

وضعت آريا يدها على الوسادة، فشعرت وكأنها تلمس كبسولة
زمنٍ سحبتها إلى زمنٍ سحيقٍ..

قبل عشر سنوات، في الخامس من تشرين الثاني، كان الجو صافياً بشكلٍ مخادع. ثلاثة أطفال يركضون قرب سياج الحديقة المزدان بأشجار الصفصاف، ضحكاتهم كانت تملأ المكان صخباً، ولم تدرك آريا حينها أنها كانت الضحكة الأخيرة. في طرفة عين، استحال المرح هلعاً؛ طفلاً يركض حاملاً طفلةً غارقةً في دمائها، وآخر يقف بعيداً ببرودٍ مريب، وكأن المشهد لا يمسه بصلة.

استفاقت آريا من غيابها الذهني حين لامست أصابعها بقعةً صلبة.. بقعة دم جافة بدت كأنها سماء لوثتها الدماء وسط سحب الوسادة البيضاء. كان الدم المتخثر في منتصف الوسادة شاهداً أبكماً؛ من نام هنا يوماً، كان رأسه ينزف جرحاً لم يُكشف سره بعد.

هزّت آريا الوسادة بلهفة، فانزلقت منها ورقة صفراء، جزءٌ من خطاب قديم أمسكت به كمن يمسك طرف خيط في دهليز مظلم. قرأت الكلمات المكتوبة بصوتٍ "سيرى" الذي تردد في عقلها:

"هذه الورقة من سيرى إلى آريا.. إن وصلتِ إلى هنا، فهذا يعني أنكِ اخترقتِ جدار الصمت. هذا الدم الذي يلطخ الوسادة هو دمكِ أنتِ! لا أحد سيكشف حقيقة ما جرى قبل عشر سنوات سواكِ. واعلمي يقيناً.. ميرى ليست والدتكِ، إنها تحرس سرّاً لن ينبشه إلا من اعتاد نبش جذور الصفصاف في طفولته".

الآن، التئمت شظايا الحقيقة في ذهن آريا. الغرفة التي تفوح برائحة الصفصاف، السرير الذي يحمل اسمها، وميرى التي طمست ملامح ماضيها.. كل شيء بات واضحاً. نظرت آريا حولها، رأت نفسها في ذلك السرير الناصع الذي يتحدى غبار السنين؛ روحها الآن باتت أنقى وأقوى بعد أن انقشع عنها غمام الخديعة. رحلت بضعفها، وحلّت مكانها آريا التي تدرك أن لكل سرٍ أوان، وأنها وحدها من يملك مفتاح الوقت."

الفصل الثاني عشر

«ميري ، هل هي أمي؟»

«يعيشُ الإنسانُ مع أناسٍ يظنُّهم أقربَ الأقربينَ، وينسجونَ له المحبةَ كما تنسجُ العنكبوتُ خيوطها حولَ فرائسها لتطبقَ عليها، وتصنعَ من الوهمِ **جداراً** تعيشُ فيه. هذا هو حالُ آريا؛ عشرُ سنواتٍ قضتها في الخداعِ ومع امرأةٍ ظنتها من دمها، ولكنها **كسَمَّ أفعى**، ما إن يلدغَ أحداً حتى يوقعه **حبيساً** للحركة.

هكذا كان حالُ آريا وهي تقفُ في ذلك المخزنِ القديمِ الذي يشبهُ فراغَ روحها حينما كانت محاطةً بالأكاذيبِ، ولكن لا، ستستفيقُ روحها وتُري ميري أنَّ الفريسةَ قد نبضت بالحياةِ **مجدداً** وأصبحت هي **الصيادُ**.

أمسكت آريا مقبضَ كرسيِّها، وقررت أن تخرجَ من هذه الغرفةِ
وكانَّ **شيئاً** لم يكن؛ فأفضلُ خيارٍ هو مواجهةُ ميري من
بعيدٍ، واقتناصُ البغتهِ المناسبةِ للانقضاضِ عليها كما ينقضُّ
الصيدُ على ضحيتهِ.

مست يدا آريا السريرَ **كمرّةٍ أخيرةٍ**؛ ولتؤكدَ لروحِ
"سيري" التي سكنت هذه الغرفةَ أنها ستحررُها، وتحررُ
روحها المقيدةَ على هذا الكرسيِّ.

عادت بظهرها على الكرسيِّ وكأنها تشتتمُّ رائحةَ هذه الغرفةِ
العزيزةِ على قلبها؛ ضحكاتها مع والديها.. أين هما الآن؟
ولماذا كذبت ميري عليها و أوهمتها بأنها ابنتُها؟

كلُّ هذه التساؤلاتِ تدورُ الآنَ في خلدِ آريا وتنتظرُ **أجوبةً**،
وهذه الأجوبةُ هي ما ستعرفه آريا فورَ خروجها من هذه
الغرفةِ.

قبضت آريا على عجلات كرسيتها ونظرت إلى الغرفة **نظرة وداع** لشخصٍ عزيزٍ عليها، وكأنها تودعُ طفولتها المفقودة؛ لتخبرها بأنها ستعودُ، ولكن حينَ تعودُ ستكونُ **أقوى** مما هي عليه الآن.

دفعت آريا عجلات الكرسى حتى خرجت من الغرفة وأقفلت بابها، كأنها تدثرُ **سراً** في قلبها خوفاً عليه من المعرفة.

أقفلت آريا الغرفة بذلك المفتاح **غريب الشكل**، ووضعت الملاءة على اللوحة وكأنها تعيدُ المشهدَ إلى بدايته كما يفعلُ مخرجو الأفلام.

خرجت آريا من الغرفة، ثم نظرت إلى الصورة، وإذا بها تُفاجأُ بميري تقفُ أمامها، وتضعُ يديها على بعضهما، وتنظرُ لآريا
بحقدٍ.

نظرت ميرى إلى آريا بعينين مليئتين بالأسئلةِ وابتسامهٍ نقشتها على وجهها، كما التمساحُ الذي ينقشُ دموعه ليخدعَ فريسته، وقالت: "آريا، هل وجدتِ ما كنتِ تنفضينَ عنه الغبارَ؟".

بابتسامهٍ باهتهٍ حاولت آريا نقشها **جيداً** على وجهها لتخفيَ عن ميرى أنها قد نالت منها، فأجابت **باقتضابٍ**:
"لا يا ميرى، فالغبارُ قد يغطي **ذنوباً أثقلَ** من الغمام، ولكنه قد يكونُ أخفَّ من بعضِ البشرِ في بعضِ الأحيان".

أصبحَ الجوُّ **متوتراً ومشحوناً** وكأنه **مبارزةٌ** بالكلامِ وتلاعبٌ بالألفاظِ، وفي أوجِ هذه المعركةِ طرقت شخصٌ ما البابَ ليقطعَ عنفوانَ هذه اللحظةِ. فُتحَ البابُ **بحركةٍ خفيفةٍ** وأطلت منه ديانا وهي تحملُ **غطاءً صوفياً** لتدفعَ به قلبَ آريا، التي لم تكن تعلمُ أنها في هذه اللحظةِ في **حاجةٍ ماسةٍ** إلى ذلك.

تنفست آريا الصعداء بعد دخول ديانا، كأن طاقتها قد استنزفت في هذه المواجهة الباردة. دلفت ديانا إلى الغرفة وذهبت إلى حيث تقف آريا ووضعت **الغطاء الصوفي** عليها، ونظرت لها **نظرة طمأنتها** ألا تقلق فهي بجوارها ولن تتركها. بادلتها آريا النظرة وكان ديانا كانت ولا تزال الدعم الأول والأخير وسط عتمة هذا المنزل الموحش.

هنا أردفت ديانا تكسر الصمت: "هيا يا سيدتي، طعام الغداء ينتظر، وانت أيضاً أنستي".

خرجت ميري **أولاً** من الغرفة وهي تنظر لآريا **نظراتٍ** تحمل معنى: "أنا أعلم كل شيء، فلا تظني أنني سأخدع".

وكمحركة سريعة بعد خروج ميري، اتجهت ديانا لمكان آريا، وقبضت على الكرسي ثم همست **بنبرة** حاولت ألا تصل إلى ميري في الخارج: "هل أنت بخير أنستي؟ وجهك يبدو **شاحباً** وكأنك كنت تصارعين الموت".

أومأت آريا **بابتسامَةٍ** لديانا ألا تقلق، وكأنها تشكرها بعينيها قبل لسانها. أمسكت ديانا بمقبض الكرسيّ ثم خرجت به إلى الخارج متجهةً بآريا إلى منضدة الطعام، وبعدها ذهبت إلى حيث مكانُ جلوسها.

على منضدة الطعام **أعينٌ تراقبٌ**، و**أعينٌ تحملٌ** الكثير من الأسئلة التي تنتظرُ **جواباً**، وما بين هذا وذاك **أعينٌ خائفةٌ** مما سيحدثُ، وكأنها حربُ العيون الباردة. دقائق من الصمتِ مرت **ثقيلةً** على منضدة الطعام، ولم يكسر هذا الصمتَ إلا سؤالُ آريا حينَ قالت: "سيري.. هل هي امرأةٌ تعرفينها... يا أمي؟".

كاد الطعامُ يقفُ في حلقِ ميري حينما أطاحت آريا بهذا السؤالِ، وكأنها تتساءلُ: كيف عرفتِ بأمرِ سيري؟ هل أخبرها أحدٌ ما.. أم أنها قد عرفتِ بأنها ليست والدتها الحقيقية؟

نظرةً باردةً تجاهَ ميري كانت هي سلاحَ آريا الوحيدَ في هذه
الجلسةِ، والتي شعرت كأنَّ آريا تطبَّقُ عليها وتحاصرُها
كفكي تمساحٍ.

وضعت ميري منديلها بعد أن مسحت فمها، ثم نظرت لآريا
وكانها تمثلُ دورَ الأمِّ الحنونِ وآريا هي الابنةُ العاقبةُ: "آريا،
هل هذا ظنُّك بي يا ابنتي بعد كلِّ هذه السنواتِ التي أفنيتُ فيها
شبابي معكِ؟ تظنينَ بي هذا الظنَّ! لم أتوقَّعها منكِ **أبدأً** يا
آريا."

عقدت آريا حاجبيها **مستنكرةً** ما تفعله ميري، وكانها
أصبحت هي الجانيةُ الوحيدةُ في هذه الجلسةِ، ثم قالت
بابتسامةٍ باهتةٍ:" لا تظني يا ميري أنني سأستكينُ لكِ، أو
سأضعفُ؛ لا، كلُّ ذلك فات أو انه."

مواجهاتٌ بالعينين، وتلاعبٌ بالكلمات؛ هكذا كانت منضدةُ
الطعامِ وكأنها استحالت **ساحةً** لحربٍ باردةٍ بين طرفين،
وديانا تقفُ في المنتصفِ **حائرةً** ماذا تفعلُ؛ أتُنحازُ
لسيدتها، أم تخسرُ أنستها؟

وهنا قررت ديانا أن تقفَ على الحيادِ فهتفت **بنبرةٍ
حميميةٍ**: "ألن تأكلا؟ الطعامُ سيبردُ، وقد تعبْتُ **جداً** في
تحضيره".

كلاهما كانتا تنظرانِ للأخرى مثل لاعبي البوكر، الذي ينتظرُ
كلُّ منهما الآخرَ ليكشفَ أوراقه، ويفوزَ بالجولة.

وأخيراً انتهت مواجهةُ الأعينِ الباردةِ بين الأمِّ المزيفةِ وابنتها،
والطرفُ الأكثرُ ربحاً هي آريا؛ لأنها استفزت ميري، وجعلتها
تخرجُ عن أعصابها ولكن على طريقتها.

قبضت آريا على عجلات كرسيتها وقررت العودة إلى غرفتها لتستريح من أثر هذه المواجهة التي استنزفت طاقتها، أما ديانا فقد شعرت بأنّ الجوّ أصبح **قاتماً ومليئاً** بالغمام، فتنهدت وهي تجمع الأطباق لتذهب بها إلى المطبخ.

عادت آريا إلى غرفتها وقد شعرت بأنّ المواجهة مع ميري لم تنته بعد، وأنّ هناك **جولات** أخرى قادمة، ولكن حين يحينُ الوقتُ المناسبُ.

وبينما هي غارقة في تساؤلاتها لمع شيء ما على الوسادة الخاصة بها. اقتربت بكرسيها لترى ما هذا ففوجئت بأنه **مغلفٌ ذهبي اللون** وبجانبه **ريشة سوداء اللون**، ولكن كيف وصلت هذه الأشياء إلى هنا؟!، فهي لم تكن هنا قبل خروجها.

تناولت ذلك ****المغلف الذهبي**** وإذ بها تُفاجأ ****بورقة**** داخله، ولكن هذه الورقة ****حديثه الطراز**** وليست كسابق الورق الذي كان يصل من "الصدى". فتحتها ثم بدأت تقرأ: "بعضُ الجذورِ قد تخفي ما هو أثقلُ من القلوبِ. لقد وجدتِ نصفَ الأحجية، وبقي أن تجدي النصفَ الآخرَ وحينها ستعرفين الحقيقةَ كاملةً؛ إنَّ ميري كانت تخدعُكِ.. ابحتي ****جيداً**** عن سيرِي، فهي محتجزةٌ في هذا المنزلِ".

تُرى كيف وصلَ المغلفُ إلى هنا؟! أيعقلُ أنَّ ذلكَ الفارسَ الغامضَ قد قَدِمَ إلى هنا وهم يتناولونَ طعامَ الغداءِ؟ وما أمرُ هذه الريشةِ السوداء؟! تبدو ****غريبة الشكلِ****، وكأنها ****رمزٌ**** لشيءٍ ما.

وبينما كانت آريا غارقةً في قراءة ذلك المغلفِ الذهبيِّ وتأمل تلك الريشةِ الغامضة، سمعتْ وقعَ أقدامِ تقترُبُ من غرفتها، ورائحة خبثٍ تفوحُ في الأرجاء؛ ****رائحةٌ**** تؤكدُ بأنَّ على آريا ربطَ الأحزمة، ****استعداداً**** لمواجهةِ سقوطِ الأقنعةِ.»

الفصل الثالث عشر

طفولة مفقودة

حياةٌ سعيدة، وعائلةٌ متحابّة، ومنزلٌ واسع تحرسه شجرةٌ
صفصافٍ عتيقة، وكأنها شاهدةٌ على تعاقب الأجيال. تنادي
أوراقها بالمحبة كلَّ من احتفى بظلها، وتبعثُ برسائل
للمستظلمين بها: «لا تخافوا، هنا تسكنُ حكايا لا تموت مهما
طال عليها الغياب».

في الخامس من تشرين، عند الساعة السابعة صباحاً، كانت الأم
'سيري ليم' تُجهز ابنتها ذات السنوات العشر 'آريا' للاحتفال
بعيد ميلادها اليوم. ولأن آريا تحبُّ الخيل كثيراً، فقد اشترت
لها أمها مهراً أسمته 'فلوباتير'، ووضعتَه في حظيرةٍ صغيرة
قريبة من المنزل.

'اثبتي يا آريا، فأنتِ تتحركين كثيراً! هكذا لن أستطيع تجهيزكِ
قبل موعد الحفل!.'

هتفت سيري بهذه الجملة وهي تداعب ابنتها.

تعيش سيري في هذا المنزل مع ابنتها وزوجها 'ويل ديمتري'
الذي غادر في رحلة استكشافية إلى إحدى الجزر ولم يعد حتى
الآن، إلا أنه كان يبعث برسائل بين الحين والآخر يطمئن فيها
زوجته وابنته، مؤكداً أنه سيعود في الخامس من تشرين بعد
عشر سنوات من الغياب.

نظرت آريا إلى والدتها بحزن وسألتها: 'لماذا لا يعود أبي؟ ألا
يحبنا؟ لقد اشتقتُ إليه كثيراً. ديف وتيم يعيشان مع والدهما
السيد مايكل، يريانه كل يوم ويلعبان معه بالألعاب التي يجلبها
لهما!.'

أجابتها سيرى بنبرة حنونة: 'لا يا صغيرتي، لا تقولي ذلك؛ فوالدك يحبك جداً، وظروف عمله الصعبة هي التي دفعته للابتعاد. أتعرفين؟ فلوباتير هو من اختاره لك، فقد أرسل لي صورته وقال: هذه هدية آريا في عيد ميلادها العاشر!'

نظرت آريا بفرحةٍ إلى والدتها وقفزت في مكانها، وشعرت بأن العالم لا تسعها أجنحته من السعادة، وقررت الذهاب لرؤية المهر، ولكن طلبت منها والدتها الانتظار قليلاً، فقالت:

"انتظري يا آري، أريد أن أخبرك شيئاً مهماً يا صغيرتي؛ اليوم ستأتي خالتك ميري لزيارتنا، أريدك أن تكوني لبقةً معها ولا تزعجها، وإذا طلبت منك شيئاً فأطيعيها".

كانت كلمات "سيرى" مبهمةً لآريا، التي لم تفهم لم تتصرف والدتها بهذه الطريقة في كل مرة تأتي فيها خالتها ميري لزيارتهم.

"أمي، لِمَ تتصرفين هكذا في كل مرةٍ تأتي فيها خالتي ميري؟
أهي شخصٌ سيئٌ إلى هذا الحد؟ أنا لا أحبها".

كلمات آريا دبت في قلب "سيري" وكأنها قطعتها أجزاءً؛
فميري ليست شقيقتها فحسب، بل إنها توأمها، قد تكونان
متشابهتين في الشكل، ولكنهما مختلفتان في الروح.

فمنذ صغرهما وميري تغار من سيري في كل شيء، كل
شيءٍ تحصل عليه سيري لابد لشقيقتها أن تنال مثله، حتى
الثناء على فعل أي شيءٍ ولو كان بسيطاً.

حتى في أمور الحب والزواج، كانت ميري دوماً تشعر
بالغيرة منها؛ فعندما تقدم زوجها "ويل ديمتري" ليخطبها، جُنَّ
جنون ميري وكأن "ويل" أيضاً من حقها، فثارت وقاطعت
أختها لعدة سنوات، ولكن عندما علمت أن شقيقتها قد رُزقت
بطفلةٍ وأسمتها آريانا وتناديها بـ "آريا"، فكرت في خطةٍ خبيثة،
وهي أن تتقرب من شقيقتها وابنتها وتزورهما كل عام في عيد
مولد آريا، وبهذا تُشعر سيرى أنها تحبها وقريبةٌ منهما بعد
غياب زوجها.

نظرت آريا لوالدتها وقد شعرت بأنها قد تاهت في ذكرياتٍ
بعيدة، فتركتها وذهبت لتري المهر الذي اشتراه لها والدها،
ولكنها توقفت لتسأل سؤالاً مهماً:

"أمي، كيف عرف أبي أنني أردتُ حصاناً؟ وكيف يرسل إلينا
صوراً وخطاباتٍ وهو في جزيرةٍ بعيدة؟".

وقبل أن تجيب سيري عن هذا السؤال، قطع هذه اللحظة صوتُ خطواتٍ لأشخاصٍ يركضون؛ كان هذا الركض لطفلين يُدعيان "تيموثي" و"ديفيد"، ابني جيرانهم في المنزل المجاور وصديقي طفولة آريا، اللذين يقضيان معها جُل الأوقات.

"آريا، ألن تأتي لنلعب؟ نحن ننتظركِ لنلعب معاً".

بهذه الكلمات هتف "ديفيد جين مايكل"، أحد أطفال المنزل المجاور وصديق طفولة آريا، الذي أتى هو وشقيقه لمنزل سيري ليناديا آريا.

أرهفت آريا أذنيها وكأن قلبها يدرك هذا الصوت قبل أذنيها،
ذلك الصوت المحبب لروحها، الصوت الذي كلما شعرت
بالضيق تذهب إليه. التفتت تنظر فوجدت ديفيد وبرفته شقيقه
تيموثي، الذي كان مختلفاً عن ديفيد كل الاختلاف؛ توأمان
ولكنهما كوالدتها وخالتها متشابهان في الشكل، ولكن روحيهما
مختلفتان.

خطت آريا خطواتها بسعادةٍ نحو ذلك الصوت، وكأنها تذهب
للسعادة بقلبها قبل أقدامها.

"لم تأخرتِ يا آريا؟ نحن ننتظرُكِ منذ وقت، ماذا كنتِ
تفعلين؟".

بهذه الكلمات هتف ديفيد الذي كان ينتظرُ قدوم آريا في "حديقة
الصفصاف"، وحين تأخرتِ قَدِمَ هو وشقيقه يصطحبها لتلعب
برفتهم.

خرجت آريا إلى الرواق حيث ينتظر ديفيد وشقيقه تيموثي،
نظرت إليهما وكأن نظرتها تعني شخصاً واحداً سلب عقلها
وهي لا تزال طفلة.

"أنا آسفة، سامحاني، والدتي كانت تمشط شعري وأخبرتني أن
والدي قد اشترى لي حصاناً سأسميه (فلوباتير)، أتريدان أن
نذهب معاً لرؤيته؟".

ارتسمت على ديفيد ملامح السعادة وهو يستمع لحديث صديقة
طفولته، وكان رؤية وجهها تمثل له السعادة والبراءة.

أمسكت آريا بيدي ديفيد وهو تدعوه للذهاب إلى الحديقة أمام
أعين تيموثي الذي بدأت تنمو داخله بذرة الغيرة تجاه آريا
وشقيقه ديفيد رغم أنه توأمه .

«وفي هذه الأثناء وسط هذه الضحكات الصافية كان هناك شخص قادمٌ بعربته القاتمة ليعكر صفو أجواء هذا التجمع ؛ هذا الشخص هي ميري شقيقة سيري التوأم وخالة آريا التي أتت في هذا اليوم خصيصاً لأنه عيد ميلاد آريا ، وكأنها تدبر لرائحة خبث ستبقى ملازمة لشخصٍ ما في هذا البيت.»

« وبخطوات ثقيلةٍ على القلب هكذا بدت خطوات ميري إلى منزل شقيقتها وهي تحيك لمؤامرةً في خفائها ، بينما ترسم على وجهها ابتسامة صافية ، ولكن القلب يستطيع تمييز من يحبه وكان للقلوب رائحةً تُميز الصالح من الطالح.»

«"ديف ، تعال! إنَّ (فلوباتير) في تلك الحظيرة ؛ أخبرتني أمي أن لونه أبيض مثل حسان سندريلا، وأنا متشوقةٌ جداً لرؤيته، أسرع! وأنت أيضاً ياتيم.»»

«هتفت آريا وهي تصف بسعادة لِصَدِيقَيَّهَا هدية عيد مولدها
وكانها تشعر بوجود والدها معها رغم غيابه الطويل عنها
،وكان براءتها قد أنستها مرارة البعد ،وسنوات الانتظار .»

«اقترب ديفيد منها وربت على ظهرها بحنان ثم قال : " لاتقلقي
ياري ،أنا وتيموثي ووالدتك سنكون دوماً بجوارك ولن نتركك
ووالدك... أنا واثقٌ بأنه يشفق إليك كثيراً ويتمنى المجيء الآن
قبل الغد."»

«لطالما كانت كلماته تمثل لها القوة والدعم في لحظات حزنها
،وكانه ملاكٌ حارسٌ يرافقها؛ ولكن حتى وجوده بجوارها ،كان
هناك مَنْ يغبطها عليه ويشعر بأنه كثيرٌ عليها .هكذا كانت
نظرات تيموثي لآريا ولشقيقه ديفيد والغيرة بادية في عينيه.»

«وصل الأطفال الثلاثة إلى الحظيرة حيث (فلوباتير) ، دلفت آريا أولا ونادت على ديف ليساعدها ؛ وضعت آريا يديها على (فلوباتير) تلامس شعره ناصع البياض وكأنها تشعر بروح والدها بجوارها حينما كان يمسد شعرها بحنان.

دلف ديفيد وشقيقه تيموثي بعد أن دعتهما آريا ليريا المهر ، نظر ديفيد للمهر وقد كان مبهوراً بجماله وشعره الناعم ، وكأنه كما وصفته آريا "حصان سندريلا" ، وتخيل أن يوم زفافه يقود العربة حصاناً مثل هذا.

«صعدت آريا على الحصان بمساعدة ديفيد ، أما تيموثي فقد كان يقف بعيداً وهو ينظر لهما بغيرة ، لاحظ ديفيد ذلك فاقترب من شقيقه يسأله : " تيموثي ، ما الأمر ؟ لم أنت متجهماً هكذا ؟ هل حدث شيءٌ؟! ، أو لست سعيداً من أجل آريا ، لقد أتينا معاً لنحتفل».

«لم يُجب تيموثي شقيقه، بل وجه إليه نظرات كانت كافية
ليشعر شقيقه بضيقه، نظراتٍ تحملُ غضباً مسموماً، وحقداً
مكتوماً.»

«وفي أثناء صراع الأخوين، أصدر المهر صهياً عالياً
،وركضت به آريا ولم تستطع إيقافه؛ ولكن على عكس المتوقع
،فقد بدت سعيدةً جداً وكأن هذه السعادة كانت لحظاتها
الأخيرة.»

أسرع ديفيد وراءها خوفاً عليها من أن تقع أو يصيبها مكروه
،أما تيموثي فقد ظل مكانه يراقب الأمور ليرى إلى ما ستؤول
إليه الأمور .

وفي أثناء ركض آريا بالمهر، كان على مقربة من الحديقة
شخص آخر لا يختلف عن تيموثي في نواياه السيئة، ينظر
ويراقب متحينا الفرصة المناسبة ليدبر المكيدة .

وعن آريا فقد ظلت تقفز فوق حواجز الحديقة ببراعة، كأنها
فارسة متمرسة تحت أعين ديفيد الذي كان ينظر إليها بفخر
،وفي لحظة من الثانية فقد حدث شيء غريب ،كأن أحدهم
أطلق سهمًا أو إبرة أصابت

(فلوباتير) ثار ،وهاج ولم يعد يرى شيئًا وركض بآريا التي
لم تستطع السيطرة عليه ووقعت مغشيا عليها ،مدرجة بدمائها
ورأسها ينزف أمام شجرة الصفصاف " .

وعلى مقربةٍ من سياج الحديقة، ثمة شخصٌ كان ينظرُ بخبثٍ
لآريا الصغيرة وهي واقعةٌ على الأرض، عاجزةٌ عن الحركة.

هذا الشخصُ هو ميري، التي كانت تَعْلُو وجهها ابتسامةً باهتة،
وفي يدها شيءٌ معدنيٌّ لمع تحت ضوء الشمس؛ وكأنَّ آريا وما
حدث لها لا يعنيتها في شيء.

وفي الحديقة، كان المشهدُ كالتالي: فتاةٌ فاقدةٌ للوعي ورأسها ينزف، وطفلان في الثالثة عشرة من عمرهما لا يعرفان ماذا يفعلان؛ أحدهما ينهشُ القلقُ قلبه، والآخرُ يقفُ ببرودٍ يشبهُ برودَ تلك التي تقبُعُ خلف السياج.

"ألن تساعدني لنحملها إلى الداخل؟ ما بك تبدو بارداً هكذا؟ ألن تساعد أرياً؟!"

صاح ديفيد بهذه الكلمات وهو يرى شقيقه يقفُ ببرودةٍ وبلادةٍ تتنافيان مع عمره الصغير، وكأنَّ ما حدث لصديقة طفولته لا يعنيها، أو كأنَّ شيئاً في داخله كان يتمنى وقوع هذه الكارثة، مثل تلك التي تقفُ ببرودٍ خلف السياج.

"لِمَ تبدو قلقاً عليها هكذا؟ هل تحبها أكثر من أخيك؟! لا تفعل لها شيئاً، هي من سقطت بإرادتها".

كلماتٌ باردةٌ وقاسيةٌ خرجت من فم "تيموثي"، وكأنه ليس
طفلاً، بل رجلاً ناضجاً بقلبٍ متحجرٍ وعينين باردتين؛ ولكن
ديفيد لم ينتظر ليجادله، بل حاول حملها ليذهب بها إلى منزلها.

اقترب ديفيد من مكان سقوط آريا، ونظر إليها بحزنٍ يعتصر
قلبه، ثم قاوم ألمه وحملها مسرعاً ليذهب بها إلى سيري.

وفي منزل ويل، كانت سيري منشغلةً بقراءة إحدى روايات
شكسبير الكلاسيكية، حين أبصرت ديفيد يركضُ بآريا
وملابسها غارقةً في الدماء، وهي فاقدةٌ للوعي لا حراك بها ولا
نطق.

صدمةٌ أصابت سيري وهي ترى ابنتها بهذه الهيئة، حتى أنّ
كوب القهوة الذي كانت تحتسيه سقط وانكسر إلى أجزاء، تماماً
كما تفتتت روحها إلى مئة جزء.

"ابنتي! ما الذي حدث لها؟ لِمَ ينزف رأسها هكذا؟ ولِمَ هي فاقدةٌ للوعي؟ هيا أخبرني يا ديفيد.. أهذا هو العهد الذي قطعتَه بأن تحميها ولا تدع مكروهاً يمسها؟!"

بهذه الكلمات صاح قلبُ الأم المكلوم، وهي ترى ابنتها بهذه الحالة؛ لكنَّ هذا لم يكن وقت النحيب، بل وقت إنقاذ آريا، وبعدها ستعرف من المتسبب في ذلك.

حملت سيري ابنتها وركضت بها إلى غرفتها لتجري لها الإسعافات الأولية؛ أخرجت علبة الإسعافات من خزانة الغرفة، وبدأت بتنظيف الدم ثم تعقيم الجرح، دون أن تنتبه لبقعة دمٍ وقعت على الوسادة وصفت لونها بمرارة.

وفي الخارج، وقف ديفيد على مقربةٍ من غرفة آريا، ينتظر
خروج سيرى لتطمئنه. وبعد مرور بعض الوقت، بدأت آريا
باستعادة وعيها...»

نظرت آريا إلى سيرى وكأنها تنظر لامرأةٍ لا تعرفها،
وتراجعت إلى خلف السرير بذعر، وبدأت تتأمل الغرفة بوجهٍ
غريب وكأنها تراها للمرة الأولى. شعرت سيرى بشيءٍ مريبٍ
في ابنتها، وكأنها ليست آريا التي تعرفها، فهتفت مذعورة:

"آريا، ما بكِ تنظرين لكل شيءٍ حولكِ باستغرابٍ هكذا؟".

لم يكن هذا هو الأمر الوحيد الغريب في تصرفات آريا، فقد
نطقت جملةً كانت الأغرب حين نظرت إلى سيرى وقالت:

"سيدتي.. مَنْ أنتِ؟!".

شهقةٌ صدرت من أعماق قلب سيري قبل جسدها، وكأنَّ روحها
قد انشقت إلى نصفين

وفي تلك الأثناء، طُرق باب المنزل وكأنَّ الطارق كان ينتظر
حدوث هذه اللحظة؛ لم يكن سوى "ميري".

بخطواتٍ باردةٍ وابتسامةٍ باهتةٍ نجحت في رسمها على وجهها
دَلَفَت ميري، ولم تأتِ وحدها، بل كانت معها فتاةٌ يافعةٌ تقارب
العشرين تُدعى "ديانا"؛ وهي فتاةٌ فقيرةٌ تعمل مربيةً لدى الأسر
الغنية، كانت ميري قد رأتها ذات يوم وهي تسرق خبزاً من
أحد المحلات، فعرضت عليها العمل معها مقابل ألا تبلغ
الشرطة عنها، فوافقت ديانا وأنت معها مكرهة.

وفي الغرفة، لا تزال دهشة سيري مما حدث لابنتها مسيطرة عليها، ولكنَّ الأمر ازداد سوءاً حين أرادت آريا النهوض ولم تستطع؛ نظرت إلى قدميها اللتين عجزت عن تحريكهما، وصاحت بفرع وبكاءٍ مرير:

"قدماي.. لا أستطيع! قدماي لِمَ لا تتحركان؟ ما بهما؟!".

وفي خضم ذلك، دَلّفت ميري إلى الغرفة ومعها ديانا، مستغلةً غياب ذاكرة آريا، ثم هتفت بنبرةٍ مسمومة: "ألن تقيمي عيد ميلاد ابنتك يا سيري؟ أم أنها لن تسير على قدميها بعد الآن؟ أشعر بالأسى تجاهها، لذا أحضرتُ لها ديانا لتهتم بها وترعاها، أو ربما من الأفضل أن تشتري لها كرسيّاً متحركاً فقد صارت.. آسفة، لم أقصد ذلك".

نظرت سيري إلى شقيقتها بوجهٍ محتقنٍ وأعصابٍ تغلي، وكأنَّ
ما حدث لابنتها لم يكفِ ميري، فراحَت تشمت بما أصابها،
وقالت وقد ثارت ثائرتها:

"لِمَ عدتِ؟ أخبريني.. ألم أترك لكِ كل شيءٍ كي ترتاحي؟ ماذا
تريدين مني؟ ارحلي من هذا المنزل!".

لم تهتز ميري أمام ثورة شقيقتها، بل بابتسامةٍ باهتةٍ وقفت
أمامها وقالت:

"انظري يا ديانا، شقيقتي تريد طردي من المنزل بدلاً من أن
ترحب بأختها التي لم ترها منذ زمن، بل وتصرخ هكذا أمام
ابنتها العاجزة».

«وكمؤامرةٍ حيكّت خيوطها ببراعة، أحضرت ميري طبيباً اتفقت معه على كل شيء، ليوصم سيرى بالجنون. دلف هذا الطبيب إلى الغرفة، وبخطواتٍ باردة قيد سيرى بالقوة فوق السرير وحاول فحصها قسراً، وهي تثور وتضرب بكل ما أوتيت من قوة:

"ماذا تفعل؟! ابتعد عني.. سأريك يا ميري.. لن تفلتي بفعلتك!"

قال ذلك الطبيب المتآمر، بعد أن انتهى من فحصه المزيف وهو يمثل دور الطبيب النفسي المتمرس:

"سيدتي، إنها مصابةٌ باضطرابٍ نفسي حاد، يجب نقلها إلى أقرب مصحةٍ نفسية، أو من الأفضل عزلها في مكانٍ بعيدٍ عن هنا؛ حتى لا تؤثر على هذه الفتاة العاجزة التي ستكونين المسؤولة عنها من اليوم وصاعداً".

بهذه الكلمات، أعلنت ميري صكّ ملكيتها لسيري ولحياتها، بما فيها ابنتها وهذا المنزل؛ وأشارت إلى اثنين ممن استأجرتهم لتحكم قبضتها على المكان.

دلف رجلان بوجهين قاتمين، ذوا أكتافٍ عريضة يرتسمُ الشرُّ بملامحٍ قاتمةٍ على وجهيهما؛ اصطحبا سيري بالقوة وهي تصرخُ وتثورُ حتى بُحَّ صوتُها من النحيب، وساقاها إلى قبوٍ باردٍ مظلمٍ في زوايا هذا المنزل.

لتنتهي حقبةُ أمّ وابنتها كانتا تعيشان بسلامٍ قبل وصول هذه الأفعى، وتبدأ حقبةٌ جديدةٌ من فقدان الذاكرة والمعاناة لأريا؛ عالمٌ جديدٌ وقاسٍ لطفلةٍ وجدت نفسها فجأةً بين أناسٍ لا تعرفهم، وجدرانٍ لم تعد تذكرُ ألوانها.

لكنَّ ميري لم تكن تعلم أنَّ هذه الطفلة ستكبرُ يوماً لتستردَّ
أنفاسها، وأنَّ الذاكرة التي ظنت أنها انمحت، قد خُبئت في
"رسائل الصدى" و"المغلف الذهبي"، لتستيقظ آريا الشابة اليوم
وهي تملكُ من القوة ما يكفي لتهدمَ هذا السجن فوق رأس
خالتها ميري.»

الفصل الرابع عشر

«هل تسقط الأقنعة، قريباً؟»

«مغلفٌ ذهبي وريشةٌ سوداء؛ هذا ما وجدته آريا الليلة
الماضية، وليلتها لم يرف لها جفن وهي تتذكر طفولتها القاسية
وشبابها الذي ضاع خلف سنوات العجز والحرمان، ووالدتها
التي لم تكن أماً حقاً، وأمها الحقيقية المحتجزة التي لا تعرف
كيف تخلصها من محبسها.»

شعرت بشبابها يزوي خلف هذه النافذة، ولكن لا.. فمن اليوم
سيبدأ عهدٌ جديد، وستُري "ميري" أن العجز ليس في القدمين،
بل في الروح التي لا تدرك أن الحب هو دواء الحقد والغل
الكامن في القلوب.»

أمسكت آريا تلك الريشة السوداء المرفقة مع المغلف وقربتها
من ضوء القمر، فالتمعت لمعةً سحرية وكأنها تعلن لنفسها أنها
ستكتب عهداً جديداً تسطره على هذا المنزل، لتعيد الدفاء إلى
زواياه الباردة.

وبينما هي غارقة في أفكارها وقراراتها، طُرق الباب بخفة،
وكان أذنيها قد باتت تعرف الشخص من مجرد طرقة، فأجابت:
"ادخلي يا ديانا".

دلفت ديانا إلى الغرفة وهي تحمل كوباً دافئاً من الأعشاب
تقدمه لآريا كل ليلة، وقالت: "تفضلي أنستي، كوب الأعشاب
الخاص بك".

تناولت آريا الكوب وعلى وجهها ابتسامة ارتسمت معها الراحة
على ملامحها. شعرت ديانا بهذا التغيير، فهي لم تكن هكذا على
المائدة مع ميري، فقالت: "أنستي تبدين سعيدة، هل حدث شيء
جيد؟"

نظرت آريا إلى ديانا وهي تُحکم قبضتها على المغلف الذهبي،
ثم ابتسمت بثقة: "بالطبع، أريد منك أن تساعدني في الوصول
إلى شجرة الصفصاف، لقد اشتقتُ لاستنشاق هواءٍ نقي، فقد
أصبح جو هذه الغرفة خانقاً".

شعرت ديانا براحة كبيرة؛ فأريا لم تعد تلك الفتاة العاجزة الضعيفة التي رأتها لأول مرة منذ عشر سنوات، حين كانت فاقدة للذاكرة وقد أخذت أمها منها بالقوة. الآن أصبحت شابة قوية تخطط لاستعادة حقها.

شربت آريا الكوب، ثم ناولته لديانا التي أشارت لها آريا بأن تهدأ؛ فقد أدركت أن هناك وقع أقدام قريباً من النافذة. همست لها ألا تتحدث، وأومأت بيدها لتذهب وترى من هناك.

على أطراف أصابعها، خطت ديانا نحو النافذة مختبئة، فأبصرت طيفاً يتحرك بجوار شجرة الصفصاف، وكأنه يضع شيئاً ما هناك.

وفجأة، انعكس ضوء القمر عليه لكنه لم يبرز ملامحه؛ رأت ديانا ظل شاب طويل يرتدي عباءة تشبه عباءات الفرسان، وعلى وجهه ابتسامة ثقة، وكأنه يعلم أن أحداً يراقبه.

عادت ديانا إلى آريا وقالت بهمس: "هناك شخصٌ مريبٌ يحوم حول شجرة الصفصاف، أتعلمين شيئاً عنه؟".

بكلماتٍ قويةٍ ونظراتٍ واثقةٍ، أجابت آريا وهي ترنو إلى النافذة: "لا تخافي يا ديانا؛ إنه روحٌ من الشجرة أتت لتحمينا، ولترينا الحقيقة جليةً كذاك القمر الذي ينير السماء".

لم تصدق ديانا أن هذه هي آريا؛ الفتاة التي كانت ترفض الخروج من غرفتها أو مقابلة أحد، هي من تتحدث الآن بهذا الإصرار؛ فعاهدت نفسها أن تقف بجوارها مهما كلف الأمر.

مضى الوقت وهما تتحدثان حتى ساعة متأخرة، وبعدها غادرت ديانا إلى غرفتها. أما آريا، فقد ظلت تفكر في ذلك الظل: "هل هو نفس الفارس الذي أتى في المرة السابقة، أم أن هناك من يراقب المنزل؟".

تساؤلاتٌ عديدةٌ دارت في خلدِها، ولكن رغبتهَا في النوم كانت أقوى؛ فقررت تأجيل حديث الذات، فكل مقام مقال.

«ومع بزوغ أولى خيوط الفجر، شق النشاط طريقه إلى آريا التي استيقظت بهمةٍ عالية، وعزمٍ واضحٍ لمعرفة الحقيقة التي طمستها ميري لعقود».

جلست آريا على ذلك القيد المعدني الذي يرافقها كأنه قدمها البديلة، لكنها عزمت على تحويله إلى أداة للحرية. دفعت بيديها الكرسي وهي تراقب المكان بحذر، إلى أن أيقنت خلوه، فتابعت المسير.

بعد معاناة في تسيير الكرسي نحو شجرة الصفصاف، لفح
الهواء شعرها المنسدل وكأنه يخبرها بأنها حرة. وقفت أمام
الشجرة، وعاد بها شريط الذكريات إلى شهرين مضيا، حين
بدأت "رسائل الصدى" تصل إليها كالوحي. الآن هي تقف هنا،
أكثر تماسكاً وأقرب للحقيقة.

وبينما هي في غمرة تلك اللحظة، طارت إلى قدميها رسالة
غريبة، فأمالت جسدها لتمسكها وقرأت: "الحب هو ما سيجعلك
تواجهين ماضيك بشجاعة، إياك أن تجزعي، فمن لا يملك
ماضيه لا يملك حاضره. لقد اقتربت مسرحية الأقنعة من
نهايتها، واصلي شد اللجام، فالمسرح سيمتلئ بالهتاف لك".

"مَن هذا؟ ولماذا كل هذا الإصرار على كشف الحقيقة؟ هل هو
ذلك الفارس الغامض؟"

تلقت يمنة ويسرة دون جدوى، لكن رائحةً زكية تسالت إلى قلبها؛ عبيرٌ يشبه ذكريات الصغر حين كانت تلعب مع رفيقي طفولتها.

أدارت عجلات كرسيها واقتربت من جذع الشجرة، تلمسته وهمست: "أيتها الشجرة، أشعر بأنك تدفين خبايا كثيرة بين جذورك. أتمنى رؤية ذلك الفارس.. هل يعقل أن هناك قناعاً آخر يساعد ميري؟ لقد تعبت، يبدو أنني سأستسلم".

باحث بوجعها للشجرة كأنها كائن حي يسمع أنينها، والشجر وفاءً صامت في أحلك الأيام.

وكان الرياح كانت تحمل الإجابة، طارت ورقة أخرى واستقرت أسفل كرسيها. التقطتها آريا، واستنشقت فيها رائحةً غابت عنها طويلاً؛ رائحة أعادتها إلى طفولة فُقدت عند هذه الشجرة.

"أرى.. حبي الأول وعشقي الذي لا ينتهي. طفولتي المفقودة
وشبابي الذي ضاع ببعدك، لا تستسلمي ولا تدعي الشوك
يكسرك. الوردة قد تُقطف وتذبل، لكن إذا زُرعت أخرى فتملاً
الأرض بعطرها.. أود أن أعانقك ونذهب إلى مرج فسيح،
نبتعد عن بشاعة هذا العالم ونعيش في عالم وردي يسكنه طيف
حبنا. وإلى أن نلتقي، لا أريد أن أرى انهزامك بل قوة تنير
الكون.. مع تحياتي، فارسك الغامض".

ضمت الورقة إلى صدرها، وكان قلبها يعرف كاتبها. وعلى
الجانب الآخر، كان هناك ظلان؛ أحدهما يراقب من بعيد،
والآخر يتحين الفرصة لحمايتها.

الظل الأول لميري؛ تلك العجوز التي أتقنت مسرحية الأقنعة
ببراعة، لكنها لا تعلم أن "البطل" قد حضر لتغيير النهاية. أما
الظل الثاني، فهو طيف طفولتها وحبها الأول؛ قريبٌ كظلها،
لكن بينهما حاجز يشبه ما بين الحادي والثلاثين من ديسمبر
والأول من يناير؛ قريبان جداً ولكن بينهما عام!

دفعت آريا كرسيها بقوة، معلنةً أنها لم تعد تلك الفتاة المستكينة. توقفت في منتصف ردهة المنزل كأنها ملكة المكان، وواجهت ميري التي خرجت لترقبها. نظرت إليها بعينين تفيضان تحدياً، واقتربت منها لتهمس في أذنها بصوت هادئ: "ميري، للأفلام نهاية، وكذلك لعبتكِ قاربت على الانتهاء. استعدي، فمسرحة الأقمعة ستسقط عاجلاً أم آجلاً".

تركت آريا ميري في ذهولها واختفت بكرسيها كشبح مهيب. عادت لغرفتها والابتسامة تزين ثغرها، تتساءل: "لماذا لم أبادر بذلك من قبل؟ هل كان الأمر يتطلب فقط بعض الشجاعة، أم أن رسائل الصدى كانت هي المفتاح؟"

الفصل الخامس عشر

«ميري واريا ، عينُ ترقب ..وعينُ تخافُ»

«ليلةٌ مساءً قضتها آريا وهي تتذكر نظرة ميري، وقد شعرت
بلذة انتصارٍ كأنها تشفي غليل عذابٍ عشر سنوات من
الخضوع والخداع».

سحبت عجلات كرسيها إلى الدرج وأخرجت دفترًا يحوي
شكلاً لشجرة الصفصاف على غلافه، وبدأت بتدوين ما تشعر
به: «الليلة أحسست بلذة الانتصار في نفسي، قد تظن ميري
أنها أقعدتني عشر سنوات محبوسة في هذا المنزل، لكني الليلة
رأيتُ فيها عيناً تخافُ مني».

وعن ميري، ففي غرفتها تعض أصابع الندم وهي تتذكر تلك
النظرة التي رأتها في عيني ابنة شقيقتها، فحدثت نفسها:
"سأريك يا ابنة سيرى، لن أدعكِ تهنئين طويلاً، قد تكونين
ربحتِ جولة، ولكن أنا من سيفوز بالمعركة".

وعن عينٍ أخرى ترقب حركات ميري وتوترها؛ هكذا كان حال ديانا، تلك الحليفة التي تمد آريا بالقوة في أوج انكسارها وبالمودة حين الجفاء. وقفت على مقربة من الغرفة تستمع لما تتمم به ميري، وفجأة سمعتها وهي تتحدث في الهاتف مع شخص ما:

«أريد منك معروفاً، أريدك أن تتخلص من ابنة شقيقتي التي تسكن معي، لم أعد أطيق وجودها بجوارتي، هل ستتولى هذا الأمر؟»

وضعت ديانا يديها على فمها تحاول ألا تسمع ميري شهقات خوفها، ولكن ميري أحست بوجود شخص ما قرب الغرفة؛ وضعت سماعة الهاتف وحاولت أن تمشي بخفة لتعرف من هو، فنظرت من فتحة الباب فلم تجد أحداً.

ظلت تتساءل: من هذا؟ أيعقل أنها ديانا؟ فلو كانت آريا
لاستغرقت وقتاً طويلاً بسبب كرسيتها، فتوعدت في سرها
لديانا: "حسناً سأريكِ يا ديانا، سأعيدكِ إلى السجن، ذلك المكان
الذي تستحقينه".

وأما ديانا فركضت مسرعة تخبئ من ميرى؛ ليس خوفاً منها،
وإنما لتذهب لتحذر آريا مما سمعته.

كانت آريا في غرفتها تتذكر لحظات نظرتها لميرى، حينما
طرقت ديانا باب الغرفة، فذهبت آريا لتفتح الباب وقد شعرت
بالخوف من طرقة ديانا، فهي عادة تكون طرقة أخف؛ فتحت
الباب وإذا بها ترى ديانا ووجهها يتصبب عرقاً فقالت بنبرة
سريعة: "ما الأمر؟ ماذا حدث؟ لم وجهك يتصبب عرقاً؟!"

أشارت لها ديانا أن تهدأ وهي تحاول التقاط أنفاسها ثم قالت:
"ميري.. إنها تحاول قتلك، كانت تتصل بأحدهم وتطلب منه أن
يتخلص منك".

لم تفاجأ آريا مما قالته ديانا، فهي باتت تتوقع أي شيء من
ميري، فقالت وهي تذهب بكرسيها نحو نافذة الغرفة بهدوء
أعصاب ملحوظ: "لا تقلقي، من هم مثل ميري توقعي منهم أي
شيء. أنا لم أعد أخاف منها وسأظل أحاربها حتى لو بت
أزحف على قدمي زحفاً لأخرجها من هذا المنزل".

دهشت ديانا من ردة فعل آريا الباردة تجاه حديث ميري، وما
زاد دهشتها هي القوة التي شعرت بها في حديثها، وكأن آريا لم
تعد تلك الطفلة الضعيفة التي رأتها يوم قدومها قبل عشر
سنوات.

وفي هذه الأثناء، قطع صوت ذلك التوتر طرقاً خفيفاً على نافذة الغرفة؛ فتحت آريا النافذة ثم أطلت بجسدها ولكنها لم تجد أحداً، فظنت أنه صوت الريح، ولكن قبل أن تغلق النافذة لمحت شيئاً يلمع على العشب كأنه مفتاح أو شيء معدني؛ حاولت أن تقف لتخرج وتجلبه ولكن هذا أمر مستحيل.

رأتها ديانا وهي تحاول بكل جهدها أن تقف، فرقّ حال قلبها ونادتها بصوت حنون: "حاولي يا صغيرتي، ستنجحين.. هيا.... هيا اصمدي وتابعي".

ظلت ديانا تهتف بعبارات التشجيع محاولة حثها على المواصلة والاستمرار، ولكن خارت قواها وجلست على الكرسي مجدداً وهي تشعر بالإرهاك والتعب وكأنها بذلت أقصى طاقتها في هذا الأمر.

وقفت ديانا أمامها ثم مدحتها بابتسامة وثناء قويين: "أنتِ رائعة يا آريا، تابعي كدتِ تنجحين، أنا واثقة بأنكِ ستستعيدين قدرتكِ على المشي قريباً".

رغم التعب الواضح عليها إلا أنها شكرتها بعينيها، وكأنها تخبرها بأنه لولا وجودها ودعمها ما كانت لتفعل هذا.

بعد ثوانٍ من هذا، أشارت آريا لديانا أن ترى ما خارج النافذة؛ أطلت ديانا بجسمها فوجدت شيئاً معدنياً على الأرض، فقفزت خارج النافذة و أحضرتة وأعطته لآريا التي ظلت تتفحصه بيديها وقلبته على ظهره، فوجدت ورقة صغيرة كُتب فيها:

«واصلي يا آريا كسر حصون قلاع ميري، فالشق الصغير في الجدار قد يكبر ليصبح صدعاً كبيراً ويهدم الحائط. إياك أن تيأسي، وعندما تنتهين سيكون هذا المفتاح باباً لفتح جدار قلبٍ مغلقٍ».

تبادلت آريا وديانا النظرات دون كلام، وكان الصمت هو أقوى لغة بينهما، وأقوى سلاح ضد ميري.

أطبقت آريا القصاصه ووضعته في جيبها لحين آخر، حينما ينادي القمر ستكون مستعدة للمواجهه التي طال انتظارها، فقريباً سيحل العاشر من تشرين وحينها سيكون لكل مقام مقال.

الفصل السادس عشر.

" حين ينادي القمر."

ترقبٌ وحذرٌ، هكذا كانت أجواء الليلة الغابرة بما فيها من خوفٍ لأعينٍ، وتربصٍ لأعينٍ، ولوفاءٍ أعينٍ آخرين.

حلّ الصباح وهو يحمل الوعود بالتغيير والمحبة لكل قلبٍ مثقلٍ
ومنهك:

"أيها النائمون استيقظوا وداووا جروحكم ومآسيكم بضوء
الشمس، اخرجوا للعالم واهتفوا: نحن أقوياء، نحن قررنا
مواجهة المستحيل وجعله ممكناً."

هكذا كان حال آريا وهي تستيقظ من نومها مفعمةً بالأمل
ومتسلحةً بالإيمان في قلبها لمواجهة غمامٍ ميري وسحابها
الثقيل.

جلست على الكرسي وذهبت إلى النافذة تستنشق ندى عبير
الصباح، وقد لفحت وجهها نسمةً خريفٍ رطبةً غسلت قلباً
مثقلاً بالحزن والمعاناة المنتشرة في ثناياه.

ولكن هذا الهدوء وصفاء الأعصاب، الذي لم يدم إلا لثوانٍ،
قطعه دخول ديانا إلى الغرفة بوجهٍ شاحبٍ ويدين ترتجفان،
وكان ميري تنقم عليها هدوءها وراحة بالها، فنظرت لديانا
وسألتها:

"ما الأمر يا ديانا؟ لمَ وجهك شاحبٌ ويداك ترتجفان هكذا؟!"

ردت عليها ديانا بعد التقاط أنفاسها: "ميري، طوال الليلة
الماضية كانت تُحرق أوراقاً في مدفأة غرفتها وهي تصرخ
بغضبٍ، عدا هذه الورقة التي طارت ووصلت إلى المطبخ،
فأُتيْتُ بها إليك."

طلبت آريا من ديانا الورقة المهترئة جزئياً وحاولت تدقيق
الكلمات الموجودة فيها:

"إلى آريا، لقد قاربتِ على كشف الحقيقة، واصلي كسر
الجدار، فالصدع قد بدأ يكبر وقريباً سينفجر السد من قوة
المياه، وكذلك ميري سيأتي يومٌ وتنهار، وتكونين أنتِ عروس
هذا الوادي.. وستنتظركِ سيري حين ينادي القمر."

قربت آريا الورقة من أنفها واشتمتها وكأنها تشتم زيف ميري
وخداعها وهي تستنزف قوتها شيئاً فشيئاً، ولكن من الآن
ستسطر آريا عهداً جديداً فيه رائحةٌ مختلفةٌ عن تلك الرائحة
الثلجية.

وفجأةً، طُرق الباب بقوةٍ؛ ذلك الشخص هو ميري التي وقفت
أمام الغرفة وعلى وجهها غضبٌ وتجهمٌ واضحٌ وهي تنظر
لديانا التي تركت إعداد الطعام وجاءت إلى هنا:

"ديانا، لمَ تركتِ المطبخ؟! ألم تكوني تعدين الإفطار؟ هل لديك
الوقت للتسكع والترثرة بما لا يفيد؟"

حاولت ديانا أن تبرر لها موقفها فأجابتها وهي مرتبكة:
"سيدتي، أنا آسفةٌ سأذهب لاستكمال ما بدأتُه، لكن لا تغضبي."

غادرت ديانا الغرفة ولم تعد الغرفة تحوي سوى ميري وآريا
وكانهما في مواجهةٍ منفردةٍ. نظرت ميري إلى آريا نظرة
استهزاءٍ وقالت:

"هيه.. هل تظنين يا ابنة سيري أنك ستتالين مني؟ لا، لم يُخلق
ذلك الذي يستطيع كسري، فأنا أعرف مخططاتك جيداً،
وجسدك الهزيل هذا لن يزيدك إلا ضعفاً وفقراً."

بهدوءٍ أعصابٍ وبرودٍ ردت لها آريا نظرتها، وكأنها أصبحت
تعرف جيداً استخدام لغة العيون كنديدتها: "ربما يكون جسدي
هزياً، لكن روحي قويةٌ ومتماسكةٌ.. وسأريك كيف يهزم
العصفور الحصان."

بنظراتٍ تشتعل بالغيظ والحدق تنظر ميري لأريا التي لجمتها
كلماتها ولم تستطع أن تنبس ببنت شفةٍ، وتركت الغرفة وهي
تحترق غضباً عائدةً إلى غرفتها.

زفرت آريا أنفاسها شعوراً بالراحة بعد ذهاب تلك العجوز،
وكان وجودها يجعل المكان خانقاً خالياً من أي أكسجين.

انتهت ديانا من تحضير الإفطار وذهبت بالصينية لغرفة آريا
التي وجدتها تنظر للنافذة وكأنها تستمد قوتها من النظر
للشمس، فنادت عليها بصوتٍ دافئٍ كأنه يطرد سموم الغرفة:
"آنستي، هيا لتتناولي الإفطار، لقد أعددتُ لك البيض والخبز
وشاي الأعشاب الذي تفضليه، ودعك من تمتمات شخصٍ ما."

وضعت ديانا صينية الإفطار أمام آريا التي كانت تتضور
جوعاً وكأنها تتغذى روحياً لا جسدياً.

ما هي إلا ثوانٍ حتى شرعت آريا بتناول الطعام بنهم، وبعد انقضاء وقتٍ كانت قد انتهت، وحملت ديانا الصينية عائدةً بها إلى المطبخ.

بعد تناولها الطعام، شرعت في تناول كوب الأعشاب وهي تستنشقه كرائحةٍ زكيةٍ تسللت إلى ثنايا قلبها قبل معدتها، وفي تلك اللحظة هبت نسمة هواءٍ باردةً لفحت وجهها وطارت بالوشاح الذي كانت تضعه على قدميها إلى خارج النافذة.

سحبت عجلات كرسيها إلى أمام النافذة ورأت الوشاح ذا اللون البني ممدداً على الأرض بين الأعشاب، ولكن كان هناك شيءٌ فضيٌّ يلمع على الأرض بجانب الوشاح، فحاولت الوقوف والخروج لجلبه.

حاولت بكل قواها أن تقف، وظلت تحاول مرةً واثنين حتى كادت تنجح، ولكن قواها خارت ككل مرةٍ تحاول ذلك.

ضربت مقبض الكرسي بعنفٍ وكان هذا المعدن البارد هو
السجان الحقيقي لعجزها وقلة حيلتها؛ تراه إنساناً من لحمٍ ودمٍ
تلومه على ما أصابها وعلى أنه المتسبب فيما حدث معها.

بينما كانت آريا تضرب بقوة ذلك القيد المعدني، تسللت ديانا
إلى الغرفة وكأنها نسمةٌ باردةٌ في ليلةٍ صيفيةٍ حارةٍ، وقد أتت
عندما سمعت آهات آريا. ذهبت عند كرسيها وانحنت لتمسح
يديها ووجهها من العرق المتصبب بجهداها، ثم همست بصوتٍ
خفيضٍ: "لقد بذلتِ جهداً مضنياً، استريحِي الآن.. ستنجحين في
إحدى المرات."

لم تنبس آريا ببنت شفةٍ، وأومأت لها بشكرٍ صامتٍ، وأشارت
إلى الخارج برأسها لتفهم ديانا الإشارة على الفور.

خرجت ديانا من النافذة وأحضرت الوشاح البني والشيء
الفضي، وما كان إلا قلادةً قديمةً من الفضة ولكنها جميلة
الشكل وكان يداً خبيرةً قد صنعتها.

أعطت ديانا القلادة لآريا التي تفحصتها بيديها عدة مرات،
وبينما هي تتفحصها شعرت بأنها تُفتح. حاولت فتحها وفي
النهاية نجحت لتفاجأ بشيءٍ غريبٍ.

تحتوي القلادة صورةً لثلاثة أشخاصٍ: رجلٌ وامرأةٌ شابةٌ وطفلةٌ
في عمر العام، يقفون بجوار شجرة صفصافٍ قديمةٍ، ووجه
هذه المرأة يشبه خالتها ميري تماماً، بل إنه نسخةٌ طبق الأصل
منها.

ولم تمر ثوانٍ حتى سمعتا صوت وقع أقدامٍ في الردهة، صوتٌ يشبه نفير طبول الحرب. أخفت آريا القلادة في جيب ملابسها الداخلي، وأشارت لديانا أن تغلق النافذة، وسحبت ديانا الكرسي إلى قرب السرير وساعدت آريا على الجلوس.

فُتح الباب بقوة، وإذ بميري تطل ووجهها غاضبٌ وتتنظر في المكان بريبةً كأنها تشعر بوجود مؤامرةٍ تُحاك لها خفاءً. نظرت إلى ديانا ثم قالت:

"أنتِ، أليس لديكِ عملٌ تقومين به؟ هيا اذهبي ولا تعودي للتعسك والثرثرة من جديد."

أومأت ديانا برأسها ثم غادرت الغرفة، ليس خوفاً من ميري وإنما لتكمل تمثيلية أنها خادمتها المطيعة ورهن إشارتها.

بعد رحيل ديانا، التفتت ميري إلى آريا وقالت بصوتٍ مسمومٍ كفحيح الأفعى:

"امم، تظنين أنك قادرةٌ على فعل المستحيل؟ لا، لن تنجحي، ستظلين عاجزةً سجينه ذلك الكرسي المعدني، وستأتين إليّ في يوم من الأيام ذليلةً، منكسرةً، خاضعةً.. ولن أسامحك، وسيري ستظل أسيرةً في ذلك المكان البارد بلا طعامٍ ولا ماءٍ ولا عائلةٍ."

وكان كبرياء العظمة قد أصابتها، ظلت تضحك ضحكةً شريرةً كضحكة الساحرات، ليس كقريبةٍ لها، بل كوحش "ميدوسا" ينشر شره في كل مكان.

ظلت تضحك حتى بعد مغادرة الغرفة، وأريا تسمع ضحكات استهزائها، ولكن رُبّ ضارةٍ نافعةٍ، فبسبب غرورها باحت بمكان سيري وهي لا تعلم. بقي أن تعرف أين هو ذلك المكان الذي باتت تشعر بأنه قاب قوسين أو أدنى.

أخرجت آريا القلادة الفضية من جيبها وظلت تتفحصها ولكنها وجدت شيئاً غريباً؛ هذه القلادة بها مكانٌ كشكلٍ دائري، لم تدرِ ما هو، ولكن شكله أقرب إلى الدائرة.

أما في مكانٍ آخر، وتحديداً في غرفة ميرى، فقد وقفت أمام مرآةٍ كبيرةٍ تتوسط الغرفة، تنظر لنفسها بزهوٍ وغرورٍ وتمتمت بتكبرٍ: "تظن أنها ستقهرني، تلك القعيدة الهزيلة سأريها كيف يكون الاستعداد لجولات المعارك."

وفي مكانٍ ما من هذه الغرفة كان هناك شيءٌ غريبٌ: لوحةٌ كبيرةٌ مرسومةٌ على الحائط فيها "أب، أم، طفلةٌ صغيرةٌ"؛ صورةٌ تشبه تلك التي في قلادة آريا، بل إنها نسخةٌ طبق الأصل عنها ولكنها بحجمٍ كبيرٍ.

انتبهت ميري إلى هذه الصورة ثم وقفت أمامها وقالت بحقدٍ
دفينٍ يعكس عمق كرهها لشخصيات هذه اللوحة: "هيه، تظن
ابنتكما أنها ستهزمني، لكنها لا تعلم أنها مجرد فتاةٍ ضعيفةٍ
وهزيلةٍ بكرسيٍ معدنيٍّ، لكن سأحبسها كما حبستكما وزيفت
موتكما أمامها."

انقضى أكثر من نصف النهار وأريا في غرفتها تنتظر انقضاءه
بلهفةٍ لتعرف سر القلادة.

وبعد وقتٍ، سلمت الشمس مهمتها وحل محلها القمر ليبرز
بنوره الهادئ على الوادي كعروسٍ تفرد فستانها الأبيض على
بساط هذا الوادي.

تسللت ديانا بخفةٍ إلى غرفة آريا وأقفلت الباب خلفها بحذرٍ،
وكانهما أصبحتا محققاً ومساعدته في حل الجرائم.

ابتسمت آريا لرؤيتها وشعرت بأن ديانا هي هدية القدر لها،
وتعويضٌ عن غياب والديها بجوارها.

وقفت ديانا أمامها ثم قالت: "آنستي، هل أنتِ مستعدةٌ لنداء
القمر؟ أنا متحمسةٌ وأشعر بالإثارة وكأننا شارلوك هولمز
ومساعدته واطسون."

وافقتها آريا بإيماءةٍ من رأسها وأخرجت القلادة من جيبها
ورفعتها إلى وجه القمر فلمع شيءٌ ما خلف القلادة، قلبت آريا
القلادة فوجدت قصاصةً صغيرةً مخبأةً بعنايةٍ في ظهرها
وعليها شكل فراشةٍ بيضاء اللون كُتِبَ فيها:

"إلى آريا بنيتي الغالية وعمري الذي سُرق مني في لحظة
غدرٍ، أريدك أن تراقبي غرفةٍ ميري جيداً.. هناك ستجدينني
خلف ثقب اللوحة الكبيرة. أناديك بروحي المتلهفة للقياك. أنا
أنتظرك، سنجتمع مجدداً في الثاني من تشرين الثاني."

نظرت آريا إلى القمر وشعرت بأنه يناديها، فابتسمت وهي في داخلها يقيناً تاماً بأنها ستصل لسيري قريباً، وبأن العاشر من تشرين الثاني قد بات قريباً كقرب القمر.

طوت آريا القصاصَةَ الشفافة، وأعادتها لمخبئها السري في قلب القلادة، ثم أغمضت عينيها وهي تحتضن المعدن الفضي فوق صدرها.. وكأنها تحتضن سيري. تسلل هدوءٌ عجيبٌ لنفسها، هدوءٌ لم تعرفه منذ عشر سنواتٍ، فالיום لم يعد القمرُ مجردَ ضوءٍ بعيدٍ، بل صار "وعداً"، ولم يعد الميلادُ العشرين مجردَ رقمٍ، بل صار "فجراً" للحقيقة.

نامت آريا وهي تبتسمُ في صمتٍ، بينما ظلَّ ضياءُ القمر يحرسُ نافذتها، وكأنَّ الكون كله يهمسُ لها: "اصبري يا عروس الوادي، فالعاشرُ من تشرين على الأبواب".

الفصل السابع عشر

سرٌّ من أسرارٍ مضت

نامت آريا تلك الليلة قريرة العين ،هائئة البال ورغم محاولات
ميري المستمرة زعزعة يقينها وثقتها بذاتها ،إلا أنها لم تعر لها
انتباها كأنها طيف أو هواء لا يرى .

تسللت شمس الصباح الدافئة إلى زوايا الغرفة تملأها بالأمل
وترسم خيط أمل سيبقى مادامت آريا حية وقلبها ينبض بالأمل
وباليقين لتحرير سيرى .

وعلى عكس المرات السابقة التي تنتظر فيها ديانا قررت أن
تعافر وتبحث بنفسها عن الحقيقة .

تحاملت على نفسها وجلست على الكرسي ثم قررت البحث عن
أي شيء ،وهذه المرة قررت الخروج من ثنايا هذه الغرفة .

قررت البحث أولاً في ردهة هذا المنزل ودارت بعينيها في أرجاءها ،وبعد جهد مضمّن في البحث وقعت عيناها على بابٍ قرب المطبخ ،يبدو قديماً ولم يقربه أحد منذ زمن .

اقتربت آرياً من ذلك الباب ووقفت أمامه ،حاولت دفعه بيديها ولكنها لم تفلح . تذكرت ذلك المفتاح الذي وجدته آنفاً . أخرجته من جيبها ووضعته في مكان القفل .

وكما توقعت بمجرد أن وضعته في القفل ،أصدر صوت " تكة " خفيفة وكان هذا المفتاح ينتظر هذه اللحظة المناسبة منذ زمن .

سحبت عجلات كرسيها وسارت في ذلك الرواق المظلم بعد أن أقفلت على ذلك الركن المنسي خلفها .

سارت أريا بكرسيها في هذا الورق ،والذي لم يوجد فيه شيء سوى العتمة ولكنها قررت المضي قدما نحو الحقيقة ،الحقيقة التي لن تغيب يوما.

قصاصات وورق قديم منتشر على الأرض وعلى الحائط ،وكأن هذا المكان كان شاهدا على حياة ما مرت هنا وعلى أناس مروا من هذا المكان كذكرى تثبت أن روائح البشر هي الدليل الحي على أن بعض الأوقات لا تنسى ،حتى بعد رحيلهم.

انحنيت بجسدها للأرض وأمسكت بإحدى قصاصات الورق القديمة ،والتي كانت عبارة عن رسالة قديمة ويبدو أنها كتبت بخط طفلة ،لا خط شخص بالغ ،أمسكتها ثم بدأت تقرأ :"

عندما أمسك هذه الورقة سأكون قد كبرت وصرت فتاة يافعة ،
لأعلم متى سيحين الوقت لقراءتها ، ولكن عندما يحين الوقت
أريد أن أدخل إلى المدرسة الإعدادية وأرتدي زيا جميلا
وسيكون ديف وتيم قد صارا في الثانوية ،ولكننا سنتواصل
حتى لو أبعدت بيننا المسافات . أنا واثقة أنني سأصير فتاة
جميلة بشعر طويل ومتفوقة في دراستي . "«

ترقرقت الدموع في مقلتي آريا وكأنها للتو استعادت ذكريات
طفولة مرت من هنا وأحلام دهست ودمرت وحل محلها فتاة
قعيدة تجلس على قيد معدني يديها مضمومتين بجوار بعضهما
، ولكن لا من اليوم هذه الطفلة قد كبرت وستري ميري أن
العجز ليس في القدمين وإنما في مرض القلوب السوداء التي
لا تعرف كيف هو شعور الحب والمحبة .

تابعت السير بكرسيها وكأنها تسير في مقبرة للذكريات ،كل
ورقة تقبع هنا تمثل مرحلة ما مرت من هنا .

التقطت ورقة أخرى ولكنها هذه المرة لم تكن ورقة . بل كانت صورة لشخص ما في الصورة ، ترى من هذا الشخص ؟ ولما ألقيت صورته هنا في ركام الذكريات ؟

نفضت الغبار عن هذه الصورة فوجدت رجلا في مقتبل العمر ، يبدو في أوائل الثلاثينيات ، يجلس على كرسي ويحمل على قدميه طفلة صغيرة بعمر يتراوح بين الستة أشهر إلى العام .

نظرت لوجه الطفلة ولم تكن في حاجة للتدقيق في الملامح ، فكيف تغيب عنها ملامحها وهي طفلة ، ولكن من هذا الشخص ؟ أيعقل أنه والدها الذي لم تره منذ طفولتها ؟ هل كانت ميري تحاول طمس كل الحقائق هنا ؟!

هل قلبها مليء بالحق لهذه الدرجة ، كيف كانت تخدعها طيلة هذه السنون ؟ هل كانت أمي التي كانت تخرج من فمها خدعة وكل ما عاشته كان زيفا وخداعا ؟

أرجعت آريا ظهرها للوراء وهي تتذكر كل لحظة كذب عاشتها
مع ميرى وعلى عشر سنوات قضتها تحت العجز وتحت ظل
امرأة لم تكن سوى صورة كاذبة من الزيف .

ولكن كل ذلك من الماضي ،من الآن ستسطر عهدا جديدا ليس
فيه سوى هي ومن تحب دونا عن ميرى وحقدها .

قلبت الصورة على ظهرها ووجدت كلاما مكتوبا بأحرف
صغيرة ،وكان مساحة الصورة لم تكن تكفي ،أو أن صاحبها
أراد إيصال رسالة ما وخاف أن تضيع أو تمحى.

" إلى بنيتى الغالية وصغيرتى الحبيبة ،أنا لم أرحل بإرادتى ،أنا
والدك وسأظل والدك حتى لو باعدت بينا بلاد الأرض .
سأجرك اعثري على ستجدينى هنا إلى جوار قلبك لن أرحل
أبدا ."

ضمت آريا الصورة إلى صدرها وشعرت وكأنها تضم والدها
حيا يرزق أمامها من لحم ودم .

تابعت آريا السير بكرسيها في هذا الممر المظلم وكأنها كلما
اقتربت خطوة كشفت سرا ، أو أن الجدار المتصدع قد قارب
شقه على الانهيار .

وبينما هي تسير في غياهب هذا الممر المظلم ، أوقفت عجلات
الكرسي شيئا ما بدا أنه يعوقه من الحركة أو يمنعه من التقدم .

أمالت آريا بجسدها لترى ماهيته ، ففوجئت بوجود شيء غريب
، يبدو أنه جزء من عجلات طاولة مكسورة أو شيء من هذا
القبيل .

تفحصت هذا الشيء عدة مرات ولكنها لم تعلم ماهو ،وتساءلت في خلدها قائلة " ماهذا الشيء ،يبدو وكأنه جزء من شيء تحطم ورمي هنا ،سأحتفظ به عله يساعدني لاحقا ."

وفعلا خبئت آريا ذلك الشيء في جيبها ،وتابعت السير في ذلك الممر المظلم حتى شعرت بوميض نور خافت يأتي من بعيد .

ظلت تسير بكرسيها في ظلمة الممر إلى أن وصلت إلى باب غريب الشكل وبمحاذاته نافذة صغيرة ،غريبة الشكل بعض من زجاجها محطم إلى قطع صغيرة وملقى على الأرض .

« وإلى جانب قطع الزجاج كان هناك عدد من الأوراق القديمة الملقاة ،أمالت بجسمها والتقطت إحدى هذه الأوراق ،والتي كانت عبارة عن خربشات مرسومة عليها ،فتاة شابة تقف أمام سبورة وكأنها في فصل . ويبدو المكان به عددا من التلاميذ وكانهم منتبهون لشرحها .

والشيء الأكثر غربة هي الكلمات التي نقشت على السبورة
التي في الرسمة .

" أنا أكره آريا ،لقد سلبت مني شقيقي الوحيد . إنها لاتدعني
ألعب معه ،لقد بت أشعر بالخطر بوجودها حولي ،إنها تقول
أنا أصدقاء طفولة ، لكني لأراها كذلك ."

كلمات تشع بالغيرة والحقد شعرت بها آريا وهي تقرأ ،وكأنها
تذكرت للتو تيموثي . ذلك الفتى شقيق ديفيد والذي كان مختلفا
عنه كليا في كل شيء ، ديفيد صبي لطيف وحنون ، ولكن
تيموثي بارد الأعصاب كأنهما ليسا توأمان .

« سقطت الورقة من يديها واستقرت فوق شظايا الزجاج
،كقلبها الذي بات محطما مثله . وهي تظن أنها كانت تحظى
بصديق وحبيب بجوارها .

الفصل الثامن عشر

قلب محطم كالزجاج

تقف آريا بين ركام من الأوراق وشظايا الزجاج ،والأمر من ذلك قلبٌ تحطم كالزجاج إلى مئة قطعة ،أخفضت آريا رأسها وحدثت نفسها بصوت ضعيف يحمل أنينا متقطعا " لم ،لم يحدث معي كل ذلك ،هل أنا إنسانة بهذا السوء لأستحق كل هذا ،ألا يكفي ماعشته مع امرأة كاذبة ،ويأتي صديقي ليقول ذلك ، ليتني لم أعرفه . ليتني ظلت فاقدة للذاكرة إلى الأبد . على الأقل لم أكن سأعيش هذا الغدر وهذه المعاناة ... ليت .. ليت رسائل الصدى لم تصل لي ، ليتني لم أخرج ذلك اليوم من المنزل ، ليتني بقيت حبيسة غرفتي .

ظلت آريا تبكي وتلوم نفسها كثيرا حتى إنه بدا أن شهقاتها قد سمعها الجدار ،وبدأ المكان الذي هي فيه يتصدع شيئا فشيئا .

انتبهت آريا على ما يحدث هنا ، ووضعت يديها على رأسها
كمظلة تمنعها من سقوط الأشياء عليها ، وأسرعت بتحريك
عجلات كرسيها حتى خرجت من ذلك المكان بأعوبة.

بعد خروج آريا الصعب من ذلك المكان ،فتحت عينيها لتجد
نفسها في مكان غريب بعيد عن المنزل ،يبدو أنه منزل آخر
،لاتذكر قط هذا المكان أو إن ذهبت إليه قبلا .

جالت بعينيها تتفحص المكان عليها تتذكر ما هو ،ولكنها لم
تستطع تذكره فقررت أن تذهب وتعرف بنفسها .

وقفت أمام باب ذلك المنزل وفي داخلها تردد وحيرة من
الذهاب ،ولكنها قررت حسم الأمر ومعرفة الحقيقة كاملة

حاولت دفع الباب بخفة ،وعلى عكس ظننا فقد فتح بسهولة ،أدارت عجلات كرسيها ودلفت إلى الداخل فوجدت شيئا غريبا وهو أن المكان منظم وليس مهجورا ،وكان أحدهم كان يأتي هنا ويغادر .

بعد دخول آريا وجدت طاولة موضوعة قرب نافذة صغيرة وعلى هذه الطاولة مذياع قديم ،وبعض الأوراق القديمة منظمة وموضوعة بجانب المذياع .

اقتربت آريا وأمسكت حفنة الرسائل ،وأزالت الخيط الذي يلف الرسائل وأمسكت أول رسالة وبدأت بقراءتها : " هذا أنا ديفيد جين مايكل آكتب هذه الرسائل ولأعلم إن كانت ستصل لآريا ،صديقة طفولتي وأيضا حبي الأول . أنا أود الاعتذار منك ،لم يكن بعدي عنك قراري . لقد أُجبرت على ذلك . سامحيني ياآريا لقد كنت طفلا صغيرا ولكن أريدك أن تعلمي أن من تسبب بذلك الحادث هما خالتك التي أتت في ذلك اليوم ، وأيضا تيموثي له يد . "

شعرت آريا بالصدمة مما قرأت وشعرت بأن أوصالها ترتعد خوفاً، وفي لحظة من الثانية صدر صوت من جهة الباب، صوتاً يشبه وقع خطوات شخص ما، التفتت بجسدها لترى من، ففوجئت بشخص طويل القامة يرتدي معطفاً وعباءة طويلة ويغطي وجهه بقناع غريب الشكل، التفتت إلى آريا وقال بصوت أجش: "أحسنتِ، ووصولك لهذا المكان ووحدهك يعني أنك قاربت على كشف الحقيقة . أنصحك بالاستمرار، ولكن احذري الطريق لن يكون مزداناً بالورود . ستجدين عثرات وشوكاً وربما يعترض طريقك شخص ما، أو طيف من ماضيك ظننته اختفى . أسرعي بنبش قبور الذكرى فالجو البارد لن ينتظر سيرى لتحيا طويلاً ."

كلمات مبهمة ورجل غامض يقف ليخبرها، من هو؟ إنه ليس ذلك الفارس ذا العباءة . إنه يملك صوتاً مختلفاً، أو ربما قد غير صوته؟ ولكن لما أتى الآن؟

ظلت هذه التساؤلات تدور لثوان في نفسها ،إلى أن دلف هذا الرجل إلى المكان وبخطوات واثقة أمام أعين آريا التي لم تخف ووقفت لتري ماذا سيفعل .

اقترب ذلك الرجل منها ووقف أمامها ثم تحدث بصوت مختلف عن ما قبل قليل " أحبك ،وسأظل أحبك حتى آخر أنفاسي . أحببتك منذ طفولتنا وأحبك حتى في شبابي وفي هرمي أيضا سأحبك، كنت أود أن أريك وجهي وأبادلك هذه الكلمات بلا خوف ،أنت لاتعلمين سنون العذاب التي عشتها بعيدا عنك ،رويتك الآن هي أمنيتي الوحيدة . قاومي ولا تستلمي . وتذكري سترين وجهي في زفافنا تحت ضوء القمر."

غريب جدا ما يحدث في هذه اللحظة ،أريا تقف بلا خوف وكأن تحطم قلبها كسر هذا الخوف فقالت بصوت أناته حزينة : " وأنا لأأريدك ، إن كنت تحبني حقا فلم لم تأتِ لرؤيتي ؟ لم هربت وتركتني أواجه جروحي الغائرة وحدي ؟ لم تركتني أعيش مع امرأة كاذبة ؟ ومحرومة من كل من أحبهم ،عاجزة ضعيفة . ليلي كنهاري لأصدقاء ولا والدين بجواري ،مقيدة بكرسي معدني بات جزءا مني ، هو أصبح عائلتي وكل مالدي ، لذا لا تظنني بعد كل هذه السنوات سأفرح بلقياك وأطير فرحا لعناقك . كف عن الوهم واذهب إلى حيث كنت . فأنا لأأريدك ،لأأريدك وغادر من هنا ،هيا ."

صرخت آريا في وجهه ،صرخة تحمل كل الوجع الذي ذاقته منذ عشر سنوات من لحظة فقدانها للذاكرة وسجن أمها وحرمانها من أصدقائها ووالدها .

وعلى عكس المتوقع ،فلم يغادر ذلك المقنع وإنما بقي يسمع أناتها ،وشهقاتها ورفضها له ؛ لأنه يشعر بأن هذا هو أبسط حق من حقوقها .

وفي أوج غضبها وثورتها، ترقرت الدموع من عيني شخص
ما ،لم تكن آريا وإنما كان شخصا آخر .

شعرت آريا ببعض الدموع تنزل على يديها ،نظرت إلى
الأعلى فوجدت ذلك المقنع يبكي ،وتساءلت لم يبكي ؟ هل تأثر
قلبه أو أنه رق حاله لها .

نظرت آريا إليه ثم قالت : " يقولون أن الدموع تشفي الإنسان
وتنقي مداخله، ولكن أنا لم ولن أنسى ،فأنت وميري سيان
عندي .هي تركتني أعيش في خداع ، وأنت رحلت من دون
سؤال أو جواب ،وكل ماتركته خلفك هي طفولة مفقودة وشباب
مجهول ، هل فعلت كل ذلك لتحمي تيموثي ، هل صدقته ؟ ألم
تعلم أن له يدا في ذلك اليوم ، أتدري أنت أيضا لك يد . صمتك
وسكوتك لا يختلف كثيرا عنهم ."

أمسك المقنع بيديها المرتجفتين، وضغط عليهما كأنه يستمد منها القوة ليقول الحقيقة البشعة: (ظلمتني يا آريا.. لم أهرب جبناً ولا حمايةً لتيموثي، بل هربتُ لأشتري صمت ميري. لقد كان رحيلي هو الفدية الوحيدة لكي تبقى سيرى تتنفس، ولكي لا يلمس الموت طهرِكِ وأنتِ نائمة. كان عليّ أن أختار بين جرح قلبك.. أو فقدان حياتك)."

شعرت آريا بالدهشة من كلامه، هل كان حقاً ثمن بقائها حية؟ وهي التي ظنت به سوءاً أنه تركها، تحركت بكرسيها المعدني تفكر في كلامه وتوازنه في عقلها وأخيراً وصلت إلى قرار أنها ستصدقته؛ لأنها لاتملك خياراً ولأن الوقت أصبح ضيقاً، ويجب أن تنقذ سيرى.

نظرت إليه آريا ثم قالت بصوت قوي " لا تظنني سأفعل ذلك من أجلك ،أنا أفعل كل ذلك من أجل أمي التي حبستها ميري ،ومن أجل أبي الذي غاب عني منذ ١٩ عاما ، ولأعرف أين هو ، بل أتصدق أنا لأعرف شكله ،لم أعانقه ولم أشم رائحته في حياتي ... لذا لم أعد أتأثر، ولكني أريد أن أفهم لما تركني ،كانت دائما ماتقول لي سيعود وعاما بعد العام لم أعد أنتظر غيابه . لذا لاتظنني سأقول لك اشتقت إليك وكل هذا الكلام الذي لا طائل له .ونحن هنا لسنا في فيلم يعترف فيه البطل بحبه للبطلة ويتعانقان ويذرفان الدموع ويسدل الستار على قصة الحب الملحمية تلك ."

لم يتفاجأ ديفيد مما قالته ،بل إنه كان ينتظر هذه اللحظة ،لحظة الانفجار فأني إنسان إن مرر بما مرت به سيخضع ويحبط ويصيبه الفتور والخمول .

نظر إليها ديفيد ثم قال بصوت حزين : " وأنا أريدك كذلك ،قوية لا يقهرها شيء . لن ألومك على شيء ،فرؤيتي لك هي أمنية تمنيت تحقيقها منذ زمن ."

لم ترد عليها وإنما اكتفت بالصمت المطلق ، وكان صمتها هو الجواب والرد على كل الأجوبة التي أرادت طرحها عليه .

وفي أثناء صمتها وعدم الكلام بينهما ، قرر ديفيد إخراج شيء ما من سترته .

أخرج خريطة قديمة ومفتاحا ووضعهما على المنضدة أمام المذياع ثم قال : " هذه الخريطة ستكون دليلك لتعثري على سيرى وهذا المفتاح هو مفتاح القبو الذي سجننت فيه ، أسرعى فلم يعد هناك وقت ، واحذري من ميرى فهى ليست امرأة سهلة وثقى بديانا . ديانا فتاة صالحة ظروفها القاسية هى التى دفعتهـا لذلك . "

مدت آريا يديها تمسك الخريطة والمفتاح ،وشعرت بأنها تحمل في يديها دليل إنقاذ والدتها ،التفتت إليه ثم قالت باستنكار : "ولماذا تساعدني الآن ؟ هل أفاق ضميرك وقررت البوح بالحقيقة ؟ أم أنك تريد أن تظهر بدور الفارس المقدم الذي يظهر في نهاية الرواية ."

وقف ديفيد أمامها بثبات ثم قال وهو يحاول ألا يتأثر بغضبها : " وأنا لا أنتظر شيئاً يا آريا يكفي أن أراك بخير وتحرري والدتك وتري والدك ،صدقيني سيكون هذا جزاء صبر عشر سنوات من البعد عنك ."

وفي لحظة اختفى كما ظهر كأنه طيف جاء ليوصل رسالة ما ويعود أدراجه ،ولكنه لم يذهب خالي الوفاض بل ذهب بعد أن شعر بأنه أدى رسالته .

أمسكت آريا عجلات كرسيتها ثم قررت الرحيل من هذا المنزل
والعودة إلى الممر الذي جاءت منه .

ظلت آريا تسير بكرسيها في ذلك الممر المظلم حتى وصلت
إلى نهايته وفتحت الباب الذي دخلت منه وأوصدته خلفها لتجد
نفسها قد عادت لمنزل الأكاذيب .

وعلى عكس المتوقع فقد كانت تظن أن ميري ستنتظرها ولكنها
وجدت ديانا تقف منتظرة إياها ، والقلق بادٍ على وجهها فقالت
بصوت حنون : " أنستي ، أين كنتِ ؟ لقد استيقظت ولم أجدكِ .
بحثت عنك ولم أجدك ، لقد شعرت بالقلق عليك ، وظننت أن
مكروها أصابك ."

اقتربت آريا بكرسيها وعانقت ديانا وكأنها تستمد القوة لقلب
شعر بالخذلان من كل ماحوله .

لم تنبس ديانا ببنت شفة وإنما اكتفت بضمها إليها ،وأخذت تربت على ظهرها لأنها تعرف جيدا دون أن تتحدث ماعانته وماقاسته .

خرجت آريا من حزن ديانا بعد أن شعرت بالسعادة الداخلية وكان ديانا هي الركن الآمن في هذا المنزل .

أشارت آريا لديانا بأن تذهب بها إلى غرفتها لتستريح قليلا من هذا التعب الذي أنهك روحها قبل جسدها .

وصلت ديانا بكرسي آريا إلى الغرفة ،وساعدتها على الجلوس على السرير ،ثم سحبت كرسيها قريبا وتحدثت لآريا بصوت دافيء : " مابكِ آنستي ،أشعر بأن روحك متعبة وصوتك مكتوم ،هل أذتكِ ميري ؟ إياك ، لاتخافي منها هي مثل طير ذبح ويفر فر على الأرض قبل أن يموت نهائيا ."

رغم القسوة التي عانتها آريا قبل قليل ،إلا أن جزءا منها لايزال يفرح ببعض الكلام الذي تقوله ديانا .

نظرت لديانا ثم قالت : " لاتخافي ديانا ،وأنا أشكرك كثيرا لوجودك بجواري ،لولاك لما استطعت الصمود ،أنا ممتنة لك "

اقتربت ديانا منها وربتت على يديها ثم قالت : " سننجح وسنري ميري مانستطيع فعله ،سننقذ السيدة سيري ، ولكن علينا أن نسرع ،لنبدأ في ترتيب أوراقنا. "

أومأت آريا برأسها ثم أخرجت الخريطة والمفتاح اللذان أعطاهما ديفيد لها ثم قالت : " لقد وجدت في ذلك الممر هذه الخريطة وهذا المفتاح ،هل لهم علاقة بمكان احتجاز أمي ؟ "

أمسكت ديانا الخريطة ثم فردتها على السرير أمام آريا وحينها تفاجئت الفتاتان فقد كانت خريطة دقيقة عن البيت وأصغر تفصيلاً فيه ، ومازاد الدهشة هي أن البيت فيه غرف سرية كثيرة مخفية ، والمكان المحبوسة فيه سيرى لم يكن قبوا وإنما هو ممر طويل في الجهة الخلفية من المنزل به عبات كثيرة .

ياترى هيصل ايه ، هل هيقدرُوا يحرروا سيرى وهل هتعرض طريقهم ميرى ، هنشوف الفصل الجاي بإذن الله

الفصل العشرون

البيت المتاهة (الجزء الأول)

«عباتٌ، خريطةٌ ومفتاحٌ غامضٌ ولومٌ وعتابٌ يحملُ في ثناياه قسوةً، ولكن في ظاهرها هي حقٌّ مشروعٌ لقلبٍ عاش الخذلانَ لعشراتِ السنواتِ، والآن قد حانَ الوقتُ ليستقرَّ هذا القلبُ ويهدأً ويجتمعَ بأحبائه.»

كان الوقتُ بطيئاً يزحفُ كالسلحفاةٍ والليلُ لا يزالُ يغطي الكونَ
بستارهِ الفضيِّ، ولكن في قلبِ آريا كان نبضُها سريعاً يدقُّ مثل
تلك الساعةِ المعلقةِ بالجدارِ.

حينما دقَّت الساعةُ معلنةً انتصافَ الليلِ، قررت آريا وديانا
اللتانِ لم تناما تلك الليلةَ البدءَ في التحركِ لإنقاذِ سيري.

فردت ديانا الخريطةَ أمام ناظري آريا، وحينها وجدا أن أولَ
عقبةٍ أمامهما هو بابٌ كبيرٌ خلف لوحةٍ معلقةٍ، ولكن المشكلةُ أن
هذا البابَ قريبٌ من غرفةٍ ميري، كيف سيصلان إليه؟ فكرت
آريا ثم قالت: "لدي فكرةٌ كي نتجنبَ إصدارَ أصواتٍ بسببِ
الكرسيِّ، أقترح أن تحمليني ثم تذهبي بعدها لإحضارِ الكرسيِّ،
ولكن احذري كي لا تراكِ ميري."

ترددت ديانا قليلاً قبل أن تجيبها، ثم قالت: "لا بأس، ولكن احذري، فميري سمعها قويٌّ مثل البومة، قد تشعرُ بنا."

ردّت آريا بثقةٍ وكأنها لم تعد تخشى ميري أو أيّ شيءٍ: "لا تخافي يا ديانا، ما فعله من أجلِ إنقاذِ أُمي يستحقُّ أن نخاطرَ بحياتنا، وبما أننا وصلنا إلى هذه النقطةِ فلن نتراجع، هل فهمتِ؟"

أومأت ديانا برأسها موافقةً آريا في حديثها، فهي محقّةٌ، لا وقتَ للتراجع الآن، إما النصرُ أو الخذلانُ.

بدأت المهمةُ وتقدمت ديانا من السريرِ وقامت بحملِ آريا التي تشبّثت بها كتشبّث الغريقِ بالقشةِ، مشيرةً إليها بالذهابِ.

خلعت ديانا حذاءً وسارت بخفةٍ وهي تحملُ آريا كي لا تُصدرَ
أصواتًا ليصلا إلى شجرةِ البومةِ.

تُصدرُ الأرضُ تحتها صوتَ صريرٍ خفيفٍ، وأيضًا بدا أن
هناك صوتًا آخرَ، وهو صوتُ دقاتِ قلبِ ديانا التي تسارع
نبضُها كثيرًا، ليس خوفًا من ميري، وإنما خوفًا على آريا وما
سيواجهانه إن اكتشف أمرُهما.

نظرت آريا إلى ديانا وشعرت بدقاتِ قلبها المتسارعةِ في
صدرها، فهمست بصوتٍ خفيضٍ: "ديانا، هل أنتِ خائفةٌ؟ لا
تخافي نحن معًا. وهي في النهايةِ بشرٌ مثلنا، إن ظللنا خائفين
منها فالأفضلُ أن أذهبَ وحدي حتى لو سأزحفُ مثل الأطفالِ
الصغارِ."

"توقفت ديانا عن السير، وضمت آريا إليها كأنها تضمُّ أثنى مقتنياتها، ثم همست بصوتٍ بدا خائفاً ولكنه يحملُ من القوة والدعمِ لآريا ما يثبتُ عزمَها: "أنستي، أنا لا أخافُ من ميرى، خوفي من أن أُخذلكِ أو لا أكونَ بقدرِ الثقةِ التي ائتمنتني عليها، ولن تزحفي أنستي، سأكونُ قدمكِ وذراعكِ وجسدكِ، حتى لو أنا التي زحفتُ، سنكملُ لأن ما بدأناه معاً سننهيهِ معاً."

رغم الحذرِ والجوِّ القاتمِ وسكونِ الليلِ، إلا أن شعوراً بالسعادةِ تسللَ لنفسي آريا، وكأن وجودَ ديانا بجوارها يزيدُ من ثقتهَا بنفسِها ويُبعدُ عنها أيَّ رهبةٍ وخوفٍ.

تحركت ديانا وهي تحملُ آريا وهما تسيران على جليدٍ هشٍّ، حتى وصلتا إلى أمام اللوحةِ المعلقةِ بجوارِ غرفةِ ميرى، وهنا كانت المخاطرةُ الأكبرُ، كيف ستزيحُ آريا اللوحةَ دون أن تُصدرَ صوتاً؟

بدأت أصابع آريا تتحرك بخفةٍ محاولةً إزاحة اللوحة وهي تحبس أنفاسها، وهي تشعر ببرودة اللوحة تسري في عروقها، حتى نجحت أخيراً في إزاحتها.

زفرت ديانا أنفاسها وهي ترى نجاح آريا في إزاحة اللوحة، ولكن في هذه اللحظة سمعت صوت فتح باب غرفة ميرى، هل يُعقل أنها شعرت بوجودهما؟ لم تعرف الفتاتان ماذا تفعلان.

وفي لحظة تفكيرٍ سريعةٍ أشارت ديانا لآريا بأن تُطفئ مصباح الزيت، وبسرعةٍ اختبأتا في أقرب غرفةٍ وجداها.

فُتح باب غرفة ميرى، وإذا بها تخرج لتري ما الأمر، ولكنها فوجئت بشيءٍ غريبٍ. ليس هناك أحدٌ في الممر، تساءلت في نفسها: "ما هذا الصوت الذي سمعته؟ أيعقل أنى كنت أحلم؟"

وفي الغرفة المظلمة كانت الفتاتان تحبسان أنفاسهما كي لا تُصدرا أيّ صوتٍ، مرت ميري من جوارِ الغرفة ولكنها لم تلاحظهما.

لحظاتٌ تحبسُ الأنفاسَ وخوفٌ يقبعُ في الصدورِ لفتاتينِ تصارعان الموتَ في هذه اللحظاتِ، وفي أقلّ من ثانيةٍ شعرتا باقترابِ ميري.

ظلت ميري تسيرُ بجوارِ الغرفةِ وهي لا تزالُ تشعرُ بوجودِ أحدٍ ما، إلى أن قررت العودةَ لغرفتها حينما لم تجدُ شيئاً.

وفي الغرفة المظلمة زفرت الفتاتان أنفاسهما شعوراً بالراحةٍ لذهابِ ميري، وكان مجردَ سماعِ صوتها هو خطرٌ محققٌ بحدّ ذاته.

مرت دقائقُ قبل أن تخرجَ الفتاتان من الغرفةِ وهما تسمعان صوتَ "تكةٍ" إغلاقِ بابِ غرفةِ ميري، لتعاودا السيرَ حتى رفعت آريا اللوحةَ مجددًا ووضعت المفتاحَ الذي كان معها في ثقبِ البابِ المنسيِّ خلف اللوحةِ.

نجحت آريا في فتحِ البابِ ودخلت هي وديانا إلى الظلامِ الحالكِ متسلحتينِ باليقينِ والأملِ في إنقاذِ سيري لتبدأَ المرحلةَ الأولى في الدخولِ إلى البيتِ المتاهةِ.

الفصل الحادي والعشرون

«سيري، خطواتُ إنقاذِ علي بعد أمتارٍ.»

الإيمان واليقين هما سلاح أيِّ إنسانٍ، وقلبٌ كقلبِ آريا يحتاجُ لهذا اليقينِ ليواجهَ ماضيه ويستعدَّ لمستقبله، عشرُ سنواتٍ مضت بين الطفولةِ المشردةِ والشبابِ الضائعِ، وامرأةٌ محبوسةٌ في مكانٍ لا يعلمُ أحدٌ عنه شيئاً، ووالدٌ مفقودٌ منذَ عدةِ سنواتٍ ولم يرَ ابنته أو يشمَّ رائحتها، وصديقانِ كي يحميها أحدهما ضحى بنفسه والآخرُ غدرَ بها وكان يشعرُ بالغيرةِ منها وهي تظنُّه صديقَ طفولةٍ وفيّاً، ولكن لإنقاذِ سيرى ستضحى بنفسها حتى ولو زحفاً.

وقفت آريا أمام الأبوابِ العديدةِ وشعرت بأنها في اختبارٍ وعليها اختيارٌ واحدٍ للنجاةِ، ولكن لا بد من الإسراعِ فوقتُ الامتحانِ قد قارب على النفادِ.

أغمضت آريا عينيها واقتربت من أحدِ الأبوابِ ووضعت يديها عليه وكأنها تتحسسُ رائحةً والديتها فيه، تلك الرائحةُ التي وإن فقدتِ الذاكرةُ ستظلُّ محفورةً في قلبها وفي روحها.

بعد ثوانٍ قضتها في التفكير، ارتأت أخيرًا إلى الباب الذي على اليمين شاعرةً أن هذا هو الخيارُ الصحيحُ وأن هذا هو طريقُ إنقاذِ سيرى.

تابعت آريا ومعها ديانا نحو الباب الذي أشارت إليه آريا، مُصدرًا صوتَ "تكةٍ" خفيفةٍ.

بعد دخولِ الفتاتانِ إلى الغرفةِ فوجئتا بشيءٍ غريبٍ وهو وجودُ سريرٍ وخزانةٍ ملابسٍ ومرآةٍ تتوسطُ الغرفةَ، كأن هذا المكانَ كان يسكنه شخصٌ ما وقد غادر منذ مدةٍ، فالغبارُ يغطي المكانَ وكأنه بقي شاهدًا على وجودِ حياةٍ ما مرّت من هنا.

جالت بكرسيِّها في المكانِ ترقبُ المكانَ بعينيها بحثًا عن أيِّ دليلٍ يقربُها من الوصولِ لسيرى.

بعد بحثٍ مضمّنٍ بعينها عن أيّ شيءٍ ملموسٍ، لاحظت طرفَ ورقةٍ يتدلى من أحدِ الأدراجِ، ذهبت لترى ما هو، ففوجئت بعدةِ أوراقٍ مكومةٍ في الدرجِ وكأنها عبارةٌ عن وثائقٍ، وإحدى هذه الوثائقِ هي وثيقةٌ رخصةٍ باسمِ "سيري ليم" و"ويل ديمتري".

استدعت ديانا مناديةً عليها لتري ماذا وجدت فقالت وهي تريها الورقة: "ديانا، تعالي وانظري ماذا وجدت؟ إنها رخصةُ زواجٍ باسمِ أبي وأمي، هذا يعني أن هذه الغرفة كانت غرفة نومٍ والديّ، وميري حاولت إخفاءها عني."

نظرت ديانا للورقةِ بدهشةٍ ثم قالت: "يا إلهي، هذا أمرٌ غريبٌ، إن ميري هذه ليست إنسانةً عاديةً بل هي وحشٌ يجب القضاءُ عليه."

طلبت منها آريا أن تهدأ، فشخصٌ مثلُ ميري مجازاته وعقابه يجب أن يُطهى على نارٍ هادئةٍ ورويةٍ وحذرٍ شديدين.

تابعت آريا البحثَ في الأوراقِ فوجدت صورةً لعروسٍ وعريسٍ ويبدو أنها صورةُ زفافٍ ولكنهما يقفان عند شجرةِ الصفصافِ ينظران لها.

بحثت آريا في الصورةِ عن أيِّ شيءٍ، ولكنها لم تعثرُ على شيءٍ، فقلبت الصورةَ ظنًّا منها أنها قد تعثرُ على رسالةٍ أو كلامٍ مكتوبٍ.

وقد صدق ظنُّها إذ وجدت كلامًا مكتوبًا على ظهرِ الصورةِ ولكنه قديمٌ، حاولت قراءةَ ما فهمت منه.

"اليوم أعلن للعالم كافةً أن ويل ديمتري قد تزوج بالإنسانة التي أحبها والتي تمنأها طولَ عمره، أتمنى أن نظلَّ نحبُّ بعضنا لآخر يوم في عمرنا، أريد أن أبنى حياةً معها. أوْدُ أن يكون لي أولادٌ كُثُرٌ منها، وكم أتمنى لو رُزقت منها بفتاةً جميلةً، فإن جاءت فتاةً سأسميها آريانا لأنه اسمُ والدتي التي توفيت في صغري، وسأناديها آريا، سأعتني بها وأحبها وأرعأها، سأشتري لها الهدايا والألعاب وكلَّ ما تحتاجه."

نفضت آريا الترابَ عن وجهِ والديها ونظرت إليهما ثم قالت:
"أعدكما أن أعرَّ عليكم، وستفرحان بي لأنني كبرتُ وصرتُ فتاةً يافعةً، سنعودُ عائلةً معًا نلهو ونمرح ونعيشُ كأبي أسرةٍ عاديةٍ."

انتبهت ديانا إلى آريا وهي تمسكُ الصورةَ وتحدثُ إلى والديها كأنهما يقفان أمامها، فقررت أن تلتزم الصمتَ وتدعها في لحظتها الخاصة.

بعد الحديث إلى والديها عبر الصورة وضعت آريا الصورة في جيبها ثم قررت هي وديانا المضيّ قدماً لإنقاذ سيري.

غادرت آريا هي وديانا الغرفة وقد شعرت بأنها قد تركت رائحة والديها في هذه الغرفة، على وعدٍ بأن تعيدَ أمنيّة والديها بحياةٍ طبيعيةٍ.

بمجرد خروج ديانا وآريا من الغرفة بدأ شعاعُ النورِ يبرزُ وكأنه قريبٌ، وكلما اقتربَ كلما اقتربَ إنقاذُ سيري.

بعد خروج آريا وديانا من الغرفة سارتا في ممرٍ طويلٍ ولكنه ضيقٌ، ولكن هذا الممرٌ فيه رائحةٌ غريبةٌ، رائحةٌ تشبه شجرة الصنّافِ، وكلما تعمقتا أكثرَ في السيرِ باتت الرائحةُ قويّةً.

"أنستي، انظري هناك كثيرٌ من ورقِ الصفصافِ المتناثرِ على الأرضِ، أيعقل أننا تحت جذوعِ الشجرةِ وهذا المكانُ الذي تنبتُ منه."

نظرت آريا حولها فوجدت المكانَ مليئًا بالشقوقِ التي صنعتها شجرةُ الصفصافِ، وبجانب الأوراقِ الجديدةِ كان هناك أوراقٌ ذابلةٌ كأنه مضى على وقوعها العديدُ من السنونِ، وفجأةً لمحت آريا بابًا خشبيًا في نهايةِ هذا الزقاقِ الضيقِ، ونظرت إلى الأعلى فوجدت عددًا من جذورِ الصفصافِ تتدلى إلى الأسفلِ، فشعرت بأن مكانَ احتجازِ سيري قد بات قريبًا.

تابعت الفتاتان السيرَ في هذا الزقاقِ الضيقِ، حتى خرجتا منه ووقفتا أمام بابٍ خشبيٍّ قديمٍ مهترئٍ وكأنه بابٌ خشبيٌّ من إحدى حكاياتِ الجداتِ القديمةِ، أخرجت آريا المفتاحَ الذهبيَّ الذي معها وفتحت البابَ، وشعرت وهي تفتحه أنها تفتحُ بابَ قلبها المغلقِ.

دلفت الشريكتان من خلال الباب وكأنهما شريكتان في الألم
والمصير كما الفرح والسعادة وستكملان ما بدأتا حتى النهاية.

بعد دخول الفتاتان وجدتا شيئاً غريباً وهي أن الغرفة مليئة
بالرسائل والصور القديمة الملقاة على الأرض.

تناولت آريا إحدى هذه الأوراق والتي كانت عبارة عن دفتر
يوميات: "اليوم هو العاشر من تشرين، اليوم اقتحمت ميري
منزلنا وحبستني وسرقت مني ابنتي، وأيضاً جلبت طبيباً
ليتهمني بالجنون، حاولت بكل قوتي أن أدافع عن نفسي وعن
ابنتي، لا يهمني ما يحدث لي. أنا أشعر بالخوف على ابنتي
التي فقدت ذاكرتها وقدرتها على الحركة، إنها ضعيفة ومسكينة
ولن تستطيع مواجهة ميري وحدها، أتمنى أن تكون ديانا فتاة
عاقلة وتعتني بآريا."

امتلات عينا آريا بالدموع وهي تتذكرُ الظلمَ الذي حدث لوالديها
وما حدث معها، ونظرت إلى ديانا التي كانت والدتها تأملُ فيها
خيرًا: "أشكرُك ديانا، أنا لن أنسى وقفَتك معي، أنا مدينةٌ لكِ
ببقائي بصحةٍ جيدةٍ، والدتي تحبكِ وأنا أيضًا أحبكِ."

انحنت ديانا أمام كرسيِّ آريا ثم أمسكت يديها تربتُ عليها:
"كنت أفعلُ الصوابَ، أنستي. من يرى ظلمَ ميري ويساعدها
فيه فهو لا يملكُ قلبًا، وأنا عشتُ في ظلمها ما يكفي لأمقتها،
هيا هيا فالسيدهُ سيري في انتظارنا."

مسحت آريا الدموعَ بظهرِ يديها وهي تنظرُ لديانا ليكملا ما
بدأه.

أمسكت ديانا مقبضَ الكرسيِّ ثم توجهت هي وآريا وهي تحملُ
يومياتِ سيري في قلبها قبل يديها.

غادرت آريا وديانا الغرفة من بابٍ آخرٍ متجهتين نحو إنقاذِ سيري، ففوجئتا بعدةِ أبوابٍ كسابقتها مجدداً.

وقفت آريا أمام الأبوابِ الثلاثةِ ثم ذهبت للبابِ الذي في المنتصفِ ووضعت يديها عليه وكأنها تشعرُ برائحةِ الصنصافِ، رائحةٍ شعرت بها في قلبها.

ارتأت بشعورها بأن هذا البابَ هو عينُ الصوابِ وسحبت عجلاتِ كرسيِّها ثم دفعت البابَ بيديها وديانا خلفها.

بمجرد دخولِهما، تسلل إلى الأذانِ صوتُ تهويدٍ أو أغنيةٍ فرنسيةٍ قديمةٍ عن أمٍّ تغني لرضيعها لينامٍ بسلامٍ.

كلما دخلت إلى الغرفةِ كلما اقترب صوتُ التهويدِ وكان قلبَ آريا يعرفُ هذه الأغنيةَ، بدأت تردُّها وتكملُّها خلف صاحبها.

نَم يا صغيري.. نَم وستأخذُ الحليبَ.

الأمُّ في الأعلى.. تصنعُ لكِ الحلوى،

والأبُّ في الأسفل.. يصنعُ لكِ الشوكولاتة.»

ظلت آريا ترددُ الأغنيةَ وتحاولُ تقليدَ اللحنِ وديانا تسيرُ بجوارها تستمعُ لهذه الأغنيةَ وتدندنُ بصوتٍ جميلٍ، انتبهت آريا إلى أنها تعرفُ هذه الأغنيةَ، فسألتها بفضولٍ: "ديانا هل تعرفين هذه الأغنيةَ؟ إنكِ تدندنينها بصوتٍ عذبٍ وجميلٍ."

أدمعت عينا ديانا لسؤالها وتذكرت والدتها الراحلةَ وهي تغني لها عندما كانت صغيرةً فأجابت: "آنستي، هذه أغنيةٌ كانت أُمي تغني لي وأنا صغيرةٌ، وعندما سمعتها الآن شعرتُ بأنني عدتُ صغيرةً من جديدٍ، ولكن هذه ستظلُّ أمنيةً فأُمي قد توفيت منذ زمنٍ بسبب المرضِ ولم يبقَ ما يذكرني بها سوى أغنيتها التي بقيت معها ألحنها وأغنيها بمفردي."

اقتربت آريا من ديانا ووضعت يديها على يديها تربتُ عليهما
وتخففُ من حزنِها: "لا تقلقي ديانا، فوالدُك لم ترحلْ، إنها
باقيةٌ في قلبك وستظلُّ حيَّةً ما دمتِ تُحيين ذكرها وتنفيذين
وصاياها، ووالدتي هي والدُك. أنتِ لستِ مربيتي فقط، أنتِ
شقيقتي يا ديانا، وهل الإخوةُ بالدم؟ انظري إلى ميري وأمي،
هما شقيقتان، لكنهما مختلفتان كليًا، ولا وجهَ للمقارنة."

دبت كلماتُ آريا العزيمةَ في قلبِ ديانا وشعرت بالسعادةِ من
حديثها وأمسكت بمقبضِ الكرسيِّ ودفعت به آريا إلى حيثُ
إنقاذِ سيري الذي أصبح خطواتٍ على بُعدِ أمتارٍ.

مدت آريا يديها المرتجفتين نحو البابِ الخشبيِّ الذي شعرت
بأن والدتها تقفُ خلف ذلك البابِ المنسيِّ تنتظرُها لتحررها بعد
عشرِ سنواتٍ من الفراقِ لتقولَ لها: "لقد تأخرتُ عشرَ سنواتٍ،
لكني الآن وصلتُ أخيرًا يا أمي، أنا ابنتُك."

الفصل الثاني والعشرون

«سيري وآريا، وصال بعد عشر سنوات.»

إنقاذ "سيري" هي القضية الأولى والأخيرة، والدافع الذي حثَّ "آريا" و"ديانا" على البحث عنها، وهو ما سيقويهما على مواجهة "ميري" في رحلة ستكون مليئة بالمصاعب؛ فشخص مثل "ميري" لن تكون مواجهته سهلة، فالحقد الذي ملأ قلبها طيلة تلك السنوات، وما فعلته بشقيقتها وابنتها، لا بد أن تنال عليه جزاءها الرادع وعقابها العادل.

وقفت "آريا" و"ديانا" أمام الباب الذي شعرت "آريا" من خلاله أن والدتها تقبع خلفه، وإذ بالمفاجأة؛ فـ"آريا" لم تجد "سيري" أمامها، وإنما وجدت "ميري" تقف بغضب مكتوم وتنظر بحقد قائلة: "هل ظننت أنك ستهربين مني أيتها المعاقاة؟ حتى وإن هربت إلى باطن الأرض سأجدك، وهذه المرة لن تكوني مصابة بالشلل النصفي فقط، بل ستكونين قعيدة بلا قدمين ولا يدين".

ولم تكذ "آريا" ترد عليها حتى فوجئت بـ"ميري" تصفها صفة جعلتها تسقط عن الكرسي وتصبح على الأرض. وعلى عكس ما توقعته "ميري" بأن "آريا" ستجهش بالبكاء أو ستخاف منها، حدث شيء آخر؛ فقد نظرت إليها نظرة استحقار وازدراء وهتفت بصوت قوي: "تفعلين ذلك لأنك جبانة، ليس لديك سلاح سوى ظلمك الذي تستقوين به، لأن كل شيء في هذا المنزل حصلت عليه بالغضب والإجبار، ولكنك ستحاكمين وستنالين عقابك على كل جرائمك الوحشية".

زادت كلماتها من استفزاز "ميري"، فحاولت ركلها بالحذاء في قدمها وكأنها تحاول تذكيرها بضعفها ووهنها، ولكن "ديانا" تدخلت للدفاع عنها بكل قوتها صائحة: "ابتعدي عنها أيتها المرأة، ابتعدي لا تسميها بسوء!". بهذه الكلمات دافعت "ديانا" عن "آريا" وبدأت تتلقى الضرب بدلاً منها، وفي كل مرة كانت تُضرب فيها، كانت تتأوه بشدة من ظلم هذه المرأة.

صرخت "ميري": "ابتعدي أيتها اللصة! لماذا تدافعين عن هذه العاجزة؟ أنسيت أنني من أويتك وجعلتك تعيشين معي؟ إن لم تبتعدي سأذهب لأبلغ الشرطة عن الفتاة التي سرقت أرغفة خبز من متجر في باريس".

لم تؤثر كلماتها في "ديانا" التي استماتت في الدفاع عن "أريا"، وكان تهديدات "ميري" لم تعد تجدي نفعاً، وقالت: "لن أبتعد ولم أعد أهتم بتراهااتك، أنت امرأة بلا فائدة وقاسية، سجننت توأمك عشر سنوات وتسببت بعجز ابنتها، كل ذلك بسبب قلبك المليء بالحقد لأن أختك كانت تنعم بحياة هادئة هي وزوجها وابنتها، فقررت أن تسلبها حياتها وتصميها بالجنون، ولا بد أنك لم تفعلي كل ذلك وحدك، فهناك من كان يساعدك، وربما يكون "تيموثي" ذلك الفتى الحقود، فأنا لن أنسى نظرتة يوم الحادث".

بهذه الكلمات وقفت "ميري" بلا حراك وكأن الصدمة قد ألجمت لسانها، فلم تتوقع أن تواجهها "ديانا" ببشاعة أفعالها، وتوقفت عن ضربها. وبمجرد ابتعادها، وقفت "ديانا" بصعوبة وحاولت نفض ملابسها، وأسرعت رغم ألمها نحو "آريا" وحملتها، ثم ركضت بها في غفلة من "ميري" نحو باب وأغلقت بسرعة كي لا تصل إليهما.

وفي أثناء حملها لـ"آريا" وركضها نحو المجهول قالت لها: "لا تنظري خلفك أنستي، فـ"ميري" شبح كان لا بد له من الاختفاء يوماً ما، هي الآن مذهولة من تعري حقيقتها".

استمرت الفتاتان في الركض؛ "ديانا" تحمل "آريا" و"آريا" متشبثة بها كطوق نجاة، حتى خرجتا من ذلك المكان ووجدتا نفسيهما أمام شجرة الصفصاف. تساءلت "آريا": "أين هي السيدة "سيرى"؟ ولماذا قادنا ذلك المكان نحو شجرة الصفصاف؟ هل كانت تلك الخريطة خدعة؟".

اقتربت "ديانا" بـ"آريا" من شجرة الصفصاف ووضعتها بجانبها، ثم وقفت وهي غير مصدقة؛ لماذا حدث هذا؟ هل كانوا يدورون في حلقة مفرغة؟ أم أن هناك شيئاً ما لا يفهمونه؟

أمسكت "آريا" الخريطة ونظرت فيها، فوجدت شيئاً غريباً يبدو أنهما لم يلاحظاه، وهو وجود رسالة في ظهر الخريطة تقول: "هل ظننت أن هذه الخريطة ستكون طوق نجاة أو أن والدتك ستكون موجودة؟ لقد توفيت والدتك و"ميري" تعرف مكان جثتها. وهل ظننت أن ذلك المقنع هو "ديفيد"؟ هل صدقته وصدقته وعوده الزائفة بأنه سيحميك؟ ذلك المقنع كان أنا، "تيموثي جين مايكل"، الذي يملكك لأنك كنت تسرقين اهتمام شقيقه الذي أحبك أكثر منه، هذا هو جزاء واحدة مثلك، فأنت تستحقين ما حدث لك".

صرخت "آريا" بانهيار: "كذب! كذب! أنتم تخذعونني، أمي حية.. أمي لم تمت.. إنها تنتظرني لتراني.. إنها قريبة مني، لقد شعرتُ بها وسمعتُ صوتها وهي تغني، أيعقل أنني كنت أتخيل؟ لا لا لا!". ظلت "آريا" تصرخ بأعلى صوتها وكأن قلب الوادي قد سمعها، وبسبب صراخها اهتزت أوراق الصفصاف وكأنها تشاركها الألم.

وفي ذروة الألم، حدث شيء غريب؛ فبينما كانت "ديانا" مستندة على الجدار وهي تبكي مع "آريا"، لم تدرِ أنها تستند على زر سري، فضغطت بجسدها عليه دون علم منها، مما أدى لسقوطها هي و"آريا" في مكان مجهول.

صرخت "ديانا" وحاولت التشبث بـ"آريا" لئلا تمنعها من السقوط خوفاً من أن تتأذى. ظلام دامس، مكان مجهول، ورائحة صفصاف تنتشر بقوة في هذا المكان الغريب الذي سقطتا فيه. مضى بعض الوقت والفتاتان فاقدتان للوعي في هذا الممر المظلم، الذي تشعر وكأنه مقبرة مقفرة للأحياء تحت جنور شجرة الصفصاف.

بدأت "ديانا" بفتح عينيها أولاً ونظرت حولها، فلم ترَ سوى ظلام حالك، فتحسست المكان بيديها حتى وضعت يدها على وجه يبدو أنه وجه "آريا". حاولت إيقاظها بهزها مراراً وتكراراً وهي تبكي: "أنستي، استيقظي أرجوك، ردي عليّ، لن أحتمل أن تتركيني، أنا بدونك يتيمة وحيدة بلا عائلة، أنتِ عائلتي يا "آريا"، أرجوكِ استيقظي، وإذا أردتِ أن تضربيني وتطرديني فأنا موافقة، أرجوكِ!".

وكان آهات "ديانا" قد وصلت إلى مسامع "آريا" التي بدأت تصدر أنات خفيفة، فهمست بصوت ضعيف: "لا تبكي يا "ديانا"، أنا بخير ولن أترككِ بسهولة، أنا مثل القطط بتسع أرواح". تابعت "آريا" مزاحها وسط ألمها وكان المزاح هو ما يخفف عتمة هذا المكان.

نهضت "ديانا" تبحث عن أي منفذ للضوء مستعينة ببصيرتها الداخلية، وبعد بحث مضمّن، عثرت على القنديل الذي سقط معها، فأشعلت شمعة كانت تحتفظ بها. بمجرد اشتعال الشمعة، أضاء المكان وظهرت الجدران المملوءة بالخربشات والتقويمات، وكان سجيناً كان يَعدُّ أيامه هنا.

زحفت "آريا" لتري المكان الذي تتدلى منه جذور الصفصاف بقوة، وأشارت لـ"ديانا" قائلة: "ديانا، ارفعي الشمعة للأعلى، ألا ترين الجذور المتدلّية والخربشات؟ أنا أشعر بأن أمي باتت قريبة". وافقتها "ديانا"، ثم حملتها ليتابعا المسير في ممر طويل وواسع.

وفي أثناء سيرهما، تناهى إلى مسامعهما صوت تهويده:

"*Fais dodo, Colas mon petit frère*" (نم يا صغيري.. نم يا كولا)

"Fais dodo, t'auras du lolo" (نم وسوف تحصلُ
على الحليب)

"Maman est en haut, qui fait du gâteau"
(الأم في الأعلى.. تصنعُ لكِ الحلوى)

"Papa est en bas, qui fait du chocolat"
(والأب في الأسفل.. يصنعُ لكِ الشوكولاتة)

ظل اللحن يتسرب إليهما كمعزوفة جميلة، فتابعنا المسير حتى
وصلنا إلى نهاية الممر، حيث تراءى لهما ضوء فضي كشعاع
الشمس. وهناك، وسط جذور الصفصاف الكثيفة، كانت تجلس
امرأة نحيلة الجسم، تمسك بملاءة ملفوفة كأنها طفل صغير
وتغني لها، وجهها شاحب وشعرها الأبيض طويل ينساب على
ظهرها كأنها قادمة من عالم الأشباح.

هتفت "أريا": "أمي! لقد عدتُ، أنا لم أمت، أنا هنا يا أمي
وجئت لأخرجكِ من هنا!". رفعت المرأة نظرها نحو الملاءة
وهي تتخيل أنها تناديها، وقالت بصوت هزيل: "هل تحدثتِ
أخيراً يا "أريانا"؟ لماذا لم تردي عليّ سابقاً؟ انظري، لقد
أحضرتُ لكِ الحليب لكي تكبري وتصيري فتاة جميلة، ماذا
تريدين؟ هل تريدين أن أغني لكِ؟".

اقتربت "آريا" زحفاً بصعوبة حتى وصلت إليها وقالت: "أمي، اتركي هذه الملاءة، أنا ابنتك "آريانا ويل ديمتري"، لقد جئت لأنقذك، أنا لا أزال حية، لقد حاولت "ميري" منعي ولكنني وصلت إليك أخيراً".

وكان اسم "ميري" كان كابوساً لـ"سيري"، فما إن سمعته حتى بدأت تضرب نفسها بذعر وكأنها رأت أفعى: "ميري! ابتعدي لا تأخذي ابنتي! ابتعدي أيتها اللصة!". اقتربت "آريا" وحاولت تهدئتها، وضعت يدها على رأسها وبدأت تغني لها التهويذة ذاتها.

شيئاً فشيئاً بدأت "سيري" تهدأ حتى نامت على حجر ابنتها وسقطت الملاءة من يدها، فنظرت إليها "آريا" بحنو وهي تغفو كطفل نال منه التعب، بينما كانت "سيري" تتمتم في نومها: "ابنتي.. ميري.. ويل.. لا تتركيني "آريا" سأنتظركِ لتحرريني". كانت "سيري" تنام على حجر ابنتها كأنها هي الطفلة.

وقفت "ديانا" وقلبها يتقطع لهذا المشهد، متوعدة "ميري" بالعقاب. وبعد وقت قصير، استيقظت "سيري" مضطربة من كابوس، فهدأتها "آريا" بلمساتها حتى عادت للنوم.

سألت "آريا": "ماذا سنفعل؟ كيف سنخرج وأنتِ لن تستطيعي حملنا نحن الاثنتين؟". فكرت "ديانا" وقالت: "سأبحث عن مخرج وأنتما انتظراني هنا، لن أتأخر". لم تجد "آريا" حلاً آخر لأن الكرسي المعدني ظل في المتاهة المظلمة.

سارت "ديانا" تتحسس طريقها حتى وجدت باباً خشبياً قديماً في نهاية الرواق، حاولت فتحه لكنه كان مغلقاً. وبينما هي تبحث عن وسيلة، لمحت شيئاً يلمع على الأرض يشبه القلادة ولكنه مفتاح، وبالفعل فتح الباب غريب الشكل. لم تتساءل "ديانا" كيف وصل المفتاح إلى هنا، المهم أن الباب فُتح أخيراً كأنه يفتح باباً لروح ظلت مقيدة تحت أشجار الصفصاف.

ترى ما الذي سيواجههم بمجرد الخروج؟ هذا ما سنعرفه في الجزء القادم.

الفصل الثالث والعشرون

ترانيم الوصال.. ظهور الفارس الغامض.

فتحت ديانا ذلك الباب الخشبي القديم بالمفتاح الغامض وكأنها فتحت باباً للخلاص من جذور هذه الشجرة .

عادت إلى حيث آريا وسيري فوجدتها لازالت نائمة على حجر ابنتها .

" لقد وجدت مخرجا من هنا ،وعلينا الخروج بسرعة قبل أن تصل ميري ،هيا سأحمل السيدة سيري ،ومن ثم سأعود لحملك، أنستي ."

لم تنطق آريا بكلمة وإنما اكتفت بإيماء رأسها .

حملت ديانا السيدة سيري أولا لتخرج بها من هذا المكان ثم ستعود لحمل آريا تباعا .

ظلت ديانا تسير حاملة سيري نحو بصيص الأمل الذي سينقذهم من هذا المكان المقفر ،حتى خرجت من هذا المكان وكان هذا هو أول شعاع أمل تراه سيري منذ عشر سنوات .

بدأت سيرى بفتح عينيها وهي لاتدري أين هي ،وضعت يديها على عينيها وكان ضوء الشمس أصبح هو عدوها الوحيد ،فمن اعتاد الظلام طيلة تلك السنون سيخاف من أي شيء حتى ولو حشرة صغيرة تمشي على الأرض .

شعرت ديانا بخوف سيرى فحملتها لتستند على جذع الشجرة بعيدا عن ضوء الشمس الذي أشعرها بالخوف .

بعد أن تركت ديانا سيرى عند جذع الشجرة ذهبت لتحضر آريا ليلتم شمل هذه العائلة المنكوبة بالاجتماعهم مع السيد ويل ،ومحاكمة ميرى على جرائمها الوحشية تلك .

دخلت ديانا من خلال ذلك الباب مجددا لتحضر آريا وتخرج من ذلك المكان المقفر .

وصلت ديانا إلى مكان آريا وقد وجدت شيئاً لا يصدق ،فقد وجدت آريا تستند بيديها على الكرسي الذي كانت تجلس عليه سيري وتحاول الوقوف عليه .

ركضت مسرعة إليها تحاول مساعدتها ،ولكن آريا أشارت إليها أن تبتعد.

" أرجوكِ ديانا دعيني الآن ،أنا أريد أن أنجح وحدي ،أريد أن أري أمي أن ابنتها استطاعت المشي مجددا ."

ابتعدت ديانا قليلا ،تاركة لها مساحتها الخاصة في المحاولة.

بدأت آريا الوقوف مستندة على كرسي سيرى وكأنها تستمد الأمل منه ،حاولت الوقوف وقد كان الأمر صعبا بدأت تقف شيئا فشيئا ،وقدمها تهتز وجسدها يتصبب عرقا . ظلت تحاول وتقع وتقوم ثانية وديانا تسرع إليها تحاول مساعدتها ولكنها رفضت ذلك وفضلت أن تحاول وحدها .

وإذ بالقدر يبتسم أخيرا ،أخيرا نجحت آريا في الوقوف دون أن تقع ، يالجمال هذه اللحظة ،إنها لحظة لاتساويها كنوز العالم أجمع .

لأول مرة تضع آريا قدميها على الأرض وهي لاتصدق أن أصابعها تلمس برودة الأرض وتشعر بها ،رجفة سرت في كيانها وكأن تيار برق أصاب قدميها ،أخذت تنظر إلى نفسها ولكل خطوة تخطوها قدماها في مشهد جميل وبديع.

كان المشهد مؤثرا بشدة وهذا جعل ديانا تذرف الدموع وهي ترى أنستها تنجح في الوقوف مجددا مثل طفلة صغيرة تنجح في الوقوف مجددا بعد عشر سنوات من العجز والخضوع ، هذه اللحظة لديانا هي ماكانت تعيش من أجله وتنتظره خلال تلك السنوات .

" أحسنتِ آنستي ،هيا تابعي .. تابعي تابعي أنتِ رائعة ،يمكنكِ فعلها كدتِ تصلين هيا ... بقي القليل .. بقي القليل ... هيا هيا آريا .. آريا."

ظلت ديانا تهتف بعبارات التشجيع والتصفيق وهي تراها تحاول المشي وكأنها هي التي تحاول ،ظلت تشجعها وتصفق لها ،حتى أصبحتا قريبتان من باب الخروج .

بقي أمتار قليلة حتى تصل آريا إلى باب الخروج ،هي أمتار
نعم ولكنها خطوات عمر كامل ،عشر سنوات من العجز
والحرمان ،تختتمها آريا بالوقوف كأنها ولدت من جديد وكأنها
أجمل لحظة حتى الآن .

بقي أمتار قليلة وآريا تسير باهتزاز نعم ولكنها تشبه الطفل
الذي يتعلم المشي لأول مرة ،يقع مرة يقف مرة ولكنه في
النهاية يصل لحضن والديه ،وهما يريانها ينجح في خطواته
الأولى.

خرجت آريا من ذلك الباب ،كأنها تخرج من رحم المعاناة إلى
رحم الأمل نحو فجر جديد وأمل جديد .

وضعت آريا يديها على عينيها وهي ترى السماء تمطر كأنها
تغسل ذنوباً من على الأرض وتطهرها لتستبدل بها بداية جديدة
وفجرا لكل من يأس من حياته ،انظروا لآريا وتعلموا فالصبر
هو علاج كل داء وكل حزن.

رأت آريا والدتها تستند بجسدها على ظهر الشجرة والمطر
يتساقط على شجر الصفصاف كتراتيل تنقي الأرض من
الجرائم ،في مشهد لن تنساه في حياتها .

بدأت آريا تخطو خطواتها الأولى نحو والدتها التي تمنى أن
تراها فنادت بأعلى صوت ليصل لمسامعها : " أمي ،انظري
إليّ أنا أمشي من جديد أنا أمشي بلا قيد معدني ،أمي .. انظري
إليّ ،أنا ري كما كنتِ تحبين مناداتي، أمشي .. انظري إلي . "

بدأت سيري بفتح عيناها ببطء على صوت دافئ وحنون
وصل إلى أعماق روحها ،أمعنت النظر فوجدت فتاة تحاول
أن تخطو خطوات شخص يتعلم المشي من جديد .

حاولت الوقوف وهي تهتف بعدة كلمات غير مفهومة : " حلوتي
تعالني إلي ،أحبك ... "

ظلت تردد هذه الكلمات وكلما رددتها كلما اقتربت آريا منها
وأصبحت أقوى أكثر ،ولكن فجأة تعثرت آريا بسبب الأرض
المبللة والزلقة والأعشاب الطويلة .

صرخت سيري وهي ترى ابنتها تقع على الأرض ،وحاولت
المشي إليها وسط مشهد يفيض بالحنان وكأنه مشهد يحبس
الأنفاس .

اقتربت آريا من والدتها رغم تعثر خطواتها والعشب الطويل ،إلا أنه لم يكن عائقا فهذا زود حرارة اللقاء .

بعد عفار وعناد وتعثر مرة تلو الأخرى بسبب الأرض الزلقة والطين الذي يغطيها والحشائش الطويلة ،بدأت آريا أخيرا بلمس الأرض تحت قدمها وهي تشعر ببرودة الأرض تحتها ،إنها لحظة ستبقى في ذاكرتها وروحها مادامت حية ،إنها اللحظة التي انتظرتها منذ عشر سنوات ،لحظة لاتقدر بثمن ولاتساويها كنوز العالم مجتمعة .

بدأت خطواتها تقترب نحو والدتها ،ورغم ذهاب عقلها إلا أنها شعرت بسعادة ابنتها وهي تهتف فرحا وهي تراها تمشي مجددا ،فهي لاتزال تراها طفلة صغيرة في لحظات ربيع طفولتها الأول ،تلك اللحظة لايساويها شيء .

أخيرا وصلت آريا إلى حيث جلوس والدتها المتكأة على جذع
الشجرة وهي ترى شجرة الصفصاف والمطر يتقطر منها
كتراتيل تنقي الأرض من الشرور والأكاذيب .

وضعت سيري يديها على ابنتها تتحسس ابنتها وكأنها تتأكد
أنها ليست شبعا وأنها واقع أمامها .

ظلت سيري لبضع ثوان تقبل وجنتي ابنتها ونظرت للسماء
ورفعت يديها لتشكر ربها على هذه العطية .

وبعناق قوي ضمت سيري ابنتها إليها في مشهد تلاحم للأرواح
وللشفاء ،شفاء عشر سنوات من الشقاء والعذاب والبعد والغربة
عن بعضهما .

وبينما هي تعانقها أجهشت آريا بالبكاء لتزيد من ضمها إليه
،وسيري تشتم رائحتها التي تسللت إلى سرايين ذكرياتها
وأعادتها إلى الواقع .

" لاتبكي أمي ،أنا هنا معكِ الآن لن نفترق مجددا سنحيا الحياة التي لم نحياها سنفعل أشياء عديدة معا ،سنركض سويا وتغنين لي وتصنعين لي مربى التوت التي أحبها من يديك ،لامكان للشقاء بعد الآن وسنجتمع بأبي مجددا ."

فجأة خرجت سيري من حضن ابنتها عندما أتت بذكر أبيها ،وشعرت برجفة غريبة سرت في جسدها وأخذت تضرب نفسها بخوف وكأنها سمعت صوت شبح ،حاولت آريا التهدئة من روعها : " أمي ،مالأمر ؟ مالذي أصابك ؟ لاتخافي لن يستطيع أحد أن يمسكِ بسوء ،لا تخافي هيا اذهب أيها الوحش ،اذهب إلى مكان بعيد عنا ،لانريدك هنا .. هيا هيا ... ابتعد ."

ظلت تردد هذه الكلمات لوالدتها التي انتابتها نوبة من الخوف فجأة عندما ذكرت والدها .

" مالذي حدث ؟ هل حصل لأبي شيء سيء ؟؟"

أيعقل أن والدي قد حدث له شيء سيء ،ولكن لا أنا أشعر بأنه قريب مني و ينتظرنا لنجتمع سويا من جديد ."

حاولت آريا أن تقنع نفسها بهذا كي لا تنتشوه صورة والدها الحنون في ذكراها ،فهي حتى ولم تذكره في حياتها ، فهي لا تشعر بأنه سيء وسيتركهم وحدهم.

وفي هذه اللحظة أتت ديانا التي ظلت تراقب من بعيد مشهد التقاء الأرواح مفضلة أن يكون مشهدا عائليا تلتئم فيه جروح أم وابنتها بعد عشر سنوات من المعاناة.

وقفت آريا وبمساعدة ديانا ساعدت سيرى على الوقوف لأنه بعد التقاء الأرواح حان الوقت لوضع النقاط على الحروف .

سارت آريا وهي تتعثر خطوة تارة وتقف تارة أخرى وديانا تحمل سيرى الهزيلة والضعيفة ، وكل ثانية تلتفت لترى آريا التي تتعثر كثيرا ،فهي لم تستعد قدرتها على المشي بالكامل .

بعد معاناةٍ وصل الجميع إلى أمام المنزل الذي ستخرج منه ميرى قريبا وهو مليء بالأكاذيب والخداع لمنزل مليء بالألفة والمحبة واجتماع الأحياء .

صار الثلاثة أمام المنزل الذي شهد عذابهم لعشر سنوات ،سيرى بعقلها الغائب وآريا وديانا التي تنتظران بألم لذلك المنزل الذي كان يوماً مسرحاً للخداع، ورغم كل ماحدث لن ينكر أحد أنه شهد أوقاتا سعيدة في بعض الأحيان .

أخرجت آريا القلادة التي على شكل المفتاح ونظرت إلى الصورة التي في داخلها وهمست كأنما تتحدث إليها: "أبي، نحن أصبحنا قريبين منك . قريبا سنجتمع أنا وأنتَ وأمي وسنلفظ ميري من هذا المكان كما يلفظ الإنسان الشرور من رأسه."

قربت آريا القلادة وحاولت أن تعيد ذكرى والدها وهي تريها فهمست بصوت حنون: "أمي، انظري إلى هذه القلادة هذه القلادة هي دليل حب أبي لكِ، انظري إلينا نحن الثلاثة ونحن مجتمعين، ألسنا سعداء؟ ألا تريدين رؤيتنا مجتمعين ثانية؟ أرجوكِ أمي أنا أريد أن أرى وجهك ينير كما في السابق".

بإرتجافة يد مدت سيرى أصابعها النحيلة نحو القلادة التي
تمسكها آريا وحاولت تحسسها ، ووقعت أصابعها على صورة
ويل الذي يقف بجانبها ويحمل آريا بين ذراعيه وتمتمت
بكلمات غير مكتملة : " ويل .. أين أنت .. آريا ... ابنتي .. ميري
.. حبس .. ليلة .. طبيب ... ابتعدي عني .. ابنتي .. أتركها ..
أنا .. "

حاولت آريا أن تدقق في كلام والدتها وبدأت بتجميع الخيوط
في عقلها ، وكأنها للتو استعادت ذاكرتها كليا ، فهتفت بصوتٍ
عالٍ : " لقد تذكرت .. أمي .. ديانا ، تذكرت ما فعلته ميري تلك
الليلة ، لقد أحضرت رجلين ضخمي الهيئة وظلوا يسحبون أمي
حتى ذهبوا بها لمكان غريب .. وأيضا تذكرت نظرة ميري إليّ
وهي تقول لي .. من اليوم أنتِ يتيمة الأبوين أمكِ صارت
مجنونة .. والدك ترككم وهرب . "

" هذه هي ميري مثل الأفعى تلدغ من يقترب ، ولكننا سنكون
الصيادون الذين يقطعون جذورها لألا تؤذي من حولها . "

بهذه الكلمات هتفت ديانا التي أصبح مقتها لميري مضاعفا
ورغبتها في الانتقام منها تزداد يوما بعد يوم .

دلف الثلاثة إلى منزل الأكاذيب ليحولوه إلى منزل الألفة
والمحبة ويخلصوه من شرور ميري .

بعد دخولهم إلى المنزل لم يجدوا ميري تجلس فيه ،إلى أين
ذهبت ؟ هذا ماكان يتراد في خاطر كلاً من ديانا وآريا وهما
يريانه خاليا وجود من أي مخلوق .

قررت ديانا الذهاب لغرفة آريا لتدع سيرى تستريح قليلا
،وضعتها على السرير ودثرتها جيدا بالغطاء وأخذت تربت
على رأسها لكي تنام لأن نوبة الخوف بدأت بالعودة إليها مجددا
.

" لاتخافي سيدتي ،سأتخلص من ميرى وأعود إليكي ،لاتخافي نحن معك وسنبقى بجانبك حتى تستعيدي صحتك."

بهذه الكلمات حاولت طمأنتها وهي في داخلها تشعر بالخوف قليلا ،ولكن لابد أن لاتظهر ذلك أمامها فهي الآن في أمس الحاجة لمن يخفف عنها.

خرجت ديانا من الغرفة بعد أن أغلقت الباب خلفها فوجدت آريا تنتظرها ليبحثا عن ميرى .

" هل نامت أمي ؟ لقد سمعت صوتها تصرخ ،هل لاتزال خائفة؟".

سألت آريا ديانا بقلق عن حال والدتها وكأنها بدأت تشعر بالخوف لابتعادها عنها حتى ولو دقيقة ،إنها حتى الآن لاتصدق أنهم قد وجدوها.

بعد خروج ديانا من الغرفة وجدت آريا تنتظر في أرجاء المنزل وكأنها تراه للمرة الأولى ،حاولت المشي نحو المطبخ الذي لم تدخله إلا قليلا .

استندت آريا بيديها على الجدار وهي ترى المكان الذي تطهو فيه ديانا وجباتهم اليومية .

ديانا ،تعالى لما تقفين بعيدا؟ ألا تعرفين أنني أشعر بالخوف من بعدك عني ؟ "

بهذه الكلمات هتفت آريا لتنادي ديانا التي دخلت المطبخ ولم
تسمع صوتها ،و حين لم تسمع صوتها شعرت بالقلق فخرجت
لترى ما الأمر ؟

خرجت آريا من المطبخ وهي لاتصدق أنها تخرج من دون
سحب الكرسي المعدني أو الجلوس عليه ،لقد كانت تظن أن
هذا حلم لا يمكن أن تتحقق ،ولكن قوة الصبر والإيمان تهزم أي
مستحيل .

وفور خروجها من المطبخ وجدت آريا شيئا غريبا وهو أن
ديانا مقيدة بمنديل حول فمها ووالدتها كذلك وميري تقف في
الردهة ومعها رجلٌ قبيح الشكل بأنف كبير وعينين جاحظتين
كأن الشرر يتطاير منهما .

حاولت آريا المشي للذهاب لتحرير ديانا ،ولكن ذلك الرجل أصاب طلقة في الهواء محذرا إياها من التقدم ،فشعرت بالخوف وكان الذكريات السيئة ستظل طيفا يلحقها طوال العمر.

" إياك أن تتقدم ،إن تقدمتِ خطوة واحدة ستكون الطلقة القادمة في رأس عزيزتك ديانا ،إذا كانت حياتها تهمك فقف عندك ولا تتحركي ."

تقدمت آريا للخلف قليلا ،خوفا من أن ينفذ تهديده ويؤذي ديانا ،وفجأة وفي خضم كل ذلك خرجت ميري من ذلك الممر الذي دخلوا منه سابقا وهي تنظر لآريا نظرة استحقار وازدراء ثم قالت بتشف: " ههه ، هل ظننتِ أن فتاة عاجزة وقعيدة مثلك ؟ ستستطيع الهرب مني ، أنتِ تحلمين ، لم يخلق بعد من يهزمني ... ماهذا .. أين كرسيك الحديدي؟ هل أضعته وأنتِ تلعبين الغميضة؟ ماهذا ؟ إنك تقفين على قدميك من دونه ،لأصدق هل هذا حلم؟ ... مارأيك أن أمر رجالي بأن يطلقوا على قدميك النار كي لاتمشي مجددا لكرسيك المفضل وتعودين وحيدة وكئيبة في زوايا نافذة غرفتكِ تنتظرين من يأتي ليخلصك مني "

نظرت إليها آريا بعينين متقدتين بالتحدي والإصرار وكان كل ماعنته لم يكن إلا ثرثرة فارغة ثم قالت بصوت عال هز أرجاء المكان :

لا ، لقد جاء الشخص الذي سيهزمك يا ميري ويضع نهاية لقلبكِ
المليء بالحقد ، ولن أخاف من طلقة رصاص ترميني بها
، سأقاومك حتى آخر نقطة من دمي ، هل فهمت أيتها العجوز ؟
"

نظرت ميري إليها وهي لاتصدق أن هذه هي الطفلة التي كانت
تظل جالسة على كرسيها خلف النافذة تبكي وتصرخ من خوفها
بسبب ما حدث لها ، هي من تتحداها وتقف لها وجها بوجه
، فأمرت الرجل الذي معها بأن يطلق النار على قدميها لتسكتها
إلى الأبد .

" هيا أطلق على قدميها ، ومن ثم أطلق على رأسها ، أريد أن
أرى هذه العاجزة جثة هامدة أمامي الآن ، هيا... أطلق ."

وضع الرجل المسدس أمام عينيه وهدفه مرتكز على آريا التي تقف بثبات كثبات الجبال ،لم يرف لها جفن وكان ماحدث طيلة العشر سنوات قد أقوى قلبها .

بدأ الرجل يضغط ببطء على زناد المسدس وعينيه على قدمي آريا في مشهد تقشعر له الأبدان وميري تنتظر بانتصار لأنها ستري عدوتها بعد ثوان جثة هامة على الأرض ،وديانا جالسة على الكرسي تصرخ بغضب مكتوم وهي ترى شريكها تواجه الموت الآن وهي لاتستطيع فعل شيء .

ظلت ديانا تدبب الأرض بقدميها اعتراضا على ماسيفعلوه بآريا وتبكي وتصرخ ،ولكن دون جدوى .

أمرت ميري الرجل الغريب بأن يضربها على رأسها لكي تصمت إلى الأبد لأنها مصدر للإزعاج والضوضاء .

"اخرسي، لا أريد أن أسمع صوتك هل فهمتِ ولا تخافي سأقتل تلك الفتاة ،وأتي إليك فلا تتعجلي ."

ظلت ديانا تصرخ وتصرخ وميري تبتسم ببرود والرجل يصوب مسدسه نحو آريا التي لم تتزحزح ،وقبل ثوان من إطلاق الرصاص حدث شيء غريب وهو أن هناك صوت قرعة صدر من الخارج .

أحست آريا بشعور غريب و حدثت نفسها:" ترى هل هذه هي النهاية ؟هل سأموت هكذا ؟ ألن أرى أبي ؟ ألن أرى ميري تنال جزاءها ،لا انا لم أعش حياتي لقد فقدتُ طفولتي وشبابي ضاع أيضا ."

وبينما هي في غمرة أفكارها قطع ذلك التفكير صوت قوي .

فجأة كُسر باب المنزل الخشبي وظهر منه شابٌ طويل القامة يرتدي عباءة ، اقتحم المنزل مثل أبطال الروايات الخيالية ، عينين تشعان بالتحدي والأمل ، يقف بثبات لاتهزه الريح بصوت رخيم تحدث وهو يوجه مسدسا يحمله نحو شريكها ، وصوت الرصاص في مسدسه يسبق كلامه: " أخفض مسدسك أرضا ، وإلا ستجد سيدتك جثة هامدة ، هيا أسرع ... وفك قيد الفتاة الجالسة على الكرسي .. هيا ... "

وضع الرجل مسدسه خوفا من تهديد ذلك الفارس الغامض ووضع المسدس بجانبه .

" أحسنت ، ارفع هذا المسدس ثانية وصوبه إلى رأسها هيا ... تحرك لم تقف هكذا كالصنم .. هيا. "

صُقع الرجلُ مما قاله الشاب وتردد أيفعل ذلك أم لا ، نظرت إليه بوجه محتقن هل جُن ذلك الرجل ليفعل ذلك .

" ماذا تفعل هل تصوب المسدس نحوي أيها الجبان ؟ قلت لك
اقتل الفتاة المقيمة وتلك الفتاة العاجزة اذ بك تصوبُ نحوي ؟
خسئت كيف تجرؤ ؟ أنسيت أنني من صنعتك وأعطيتك مركزا
بعد أن كنت مشردا تهيم في الشوارع .. تقفات على ماتسرقه
من المارة."

أثار كلامها استفزاز وحنق ذلك الرجل ورفع المسدس في
وجهها فعلا بعد أن كان يهدد بالكلام أكثر وقال وهو يسخر
منها :

"بل أنتِ من سيعود لهذه الشوارع .. أيتها الحمقاء من تظنين
نفسك؟ هل تظنين أنكِ صدقتي نفسك لاتنسي أنكِ مدينة لي
بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ فرنك وأريدهم حالا ."

جحظت عيناها وهي ترى الرجل الذي اشترته بمالها ينقلب
عليها بل ويهددها بدينها ويرفع السلاح في وجهها .

ابتسم ذلك الفارس ابتسامة نصر من وراء قناعه وهو يرى
هؤلاء المهرجون يتناوبون على بعضهم ،كأنه يشاهد إحدى
المسرحيات الكلاسيكية فقال وهو يصفق بسعادة :

" رائع رائع.. تابعوا ماتفعلانه أنتما بارعان في إثارة مزاجي
.. لقد كان مزاجي متعكراً وأنتما عدلتماه .. تابعا فالمذيع
لكما ."

نظر الاثنان تجاه ذلك الفارس وهو يستهزأ بكلامهم ،وهذا جعل
ميري تنزع المسدس غصبا من ذلك الرجل وتوجهه باتجاه
أريا التي كانت تقف قبالة ذلك الفارس وتهتف بغضب :

" سأقتلك أيتها المقعدة ، سأتخلص منك وأرمي جثتك عند شجرة الصفصاف لتتعفني تحت جذورها . "

الفصل الرابع والعشرون

مواجهة محتدمة

« قلبٌ كقلبٍ ميري انغمس طول حياته في الحقد ، ترى الحب ضعفاً والحنان نقطة ضعف ، لذا لن يشعر بالسعادة طول عمره ولو ظل يبحث عنها لأنه قلب أجوف كالشجرة الفارغة يمر منه الهواء مصدرا صوتا فارغا يشعرك بالخوف والوحدة. »

ثوانٍ مرت كالصاعقة وميري تمسك المسدس وتصوبه تجاه آريا ، أغمضت آريا عينيها وهي ترى مسدس ميري يتجه نحوها ، ابتسمت ابتسامة ثقة ، كأنها باتت لاتخشى الموت ، فهتفت وهي مغمضة العين :

" أطلقني ياميري، أصببتي سابقا ولم أعد أخشاك وسأظل أخشاك
،هيا .. أطلقني."

بابتسامة باهتة كلون الماء الذي بلا طعم ،صوبت ميري
رصاصة الغدر نحو قلب آريا ،ولكن في لحظة بصر حصل
مايثير الإعجاب تدخل ذلك الفارس مثل رصاصة الرحمة
المرسلة من القدر لتتخذ آريا ،اندفع بحركة خاطفة ونزع السلاح
من يد ميري ليستقر في يده ويصبح هو البيدق المسيطر على
اللعبة.

" رائع ،أشعر بشعور جميل .. جميل أن أحمل سلاحين ،ولكن
يالثقل هذا المسدس يبدو أنكِ بعثِ كل مالدريك لتجلبيه .. هيا
اصطفي أيتها القبيحة بجانب الرجل القبيح وارفعي أيديكما...
هيا تحركوا .. أنا لأحب تكرار الكلام."

نظرات من الدهشة والإستعجاب تعلو وجه ميري التي لم تظن يوماً أن ينقلب سحرها يوماً فوق رأسها وتصبح بهذا الضعف ، رأسها مليء بالأفكار وكأنها تقول لحال نفسها :

" لا، لن أقع بسهولة سترون من هي ميريامين ليم ريتشارد وستدركون جيداً قدرها ."

بنظرات ثابتة تحوم في المكان جيداً ، رفعت يديها ووقفت بجانب الرجل القبيح لتشعر ديفيد بأنه انتصر ، انصاعت لأوامره ووضعت يديها خلف ظهرها وجلست محنية هي وقبيحها .

للتو شعر ديفيد بلذة انتصار وهو يرى نديته خاضعة وذليلة ولا يعلم أنها تدبر مكيده لايدري عنها شيئاً .

وفي حركة خاطفة دفعت ميري ذلك القبيح وانقضت بسرعة نحو آريا ووضعت يديها حول عنقها وهي تحمل سكيناً تهدد بها .

حاول ديفيد الاقتراب وابعادها عن آريا ، ولكنها كانت أسرع منه ، فقالت وهي تهدد بالسكين

" إيالك أن تقترب ، إن اقتربت فستصبح خليعة الفؤاد روحا في السماء وجثة هامة على الأرض ، إن أردت لها النجاة فاترك المسدسين وغادر من هنا مثلما جئت ، هل فهمت؟"

يدرك ديفيد جيدا أن أي حركة خاطئة سيكون مصيرها مؤلماً ، وهو لن يجازف بحياة آريا ولو الثمن حياته ، لذا وجب التريث والتصرف بروية .

رفع ديفيد يديه وهو ينصاع متظاهرا لميري ووقف مستسلما وهو يبتسم داخليا متقنا التمثيلية هنا تحركت ميري وهي لاتزال ممسكة السكين لعنق آريا : " أحسنت أنت شاب مطيع ، أنا أحترم المهذبين ومحترمي السلوك مثلك."

انحنى ديفيد يجلس على ركبتيه مكملا التمثيلية وميري تشعر بالنشوة لأنها تسيطر على كل قطع الشطرنج ومامن أحد سيقف لها الآن .

" رائع ،أنتم الثلاثة تصرفتم بعقلانية ،لن أؤدي هذه القعيدة ... وهذه المقيدة لأريد سماع صراخها .. أنا أحب الهدوء أرايتم كيف تكونون أطفالا عاقلين ومهذبين ."

وفي غفلة من ميري انقض ديفيد الذي كان يدعي الاستكانة مذ برهة وحرك قدمه تحت قدمي ميري مما اختل بتوازنها وسقطت على الأرض في سقوط لهيبة غرور الشر .

" رائع ياميري ،أو ياميريامين ليم بلا بلا .. أيا ماكنتِ أريدكِ
أن ترجعي للوقوف بجانب القبيح وانحني على ركبتيكِ . "

تماثلت ميري للطاعة وهي منصاعة ذليلة وذهبت لتقف بجانب
القبيح لتصبح مثله ،ينظر إليها ويبتسم باستهزاء فهتف بزهو
وتكبر : " فعلا الحياة ليست منصفة بالمرّة ،هذا هو نتاج التكبر
والتعالي ،تستحقين ذلك أيتها العجوز "

نظرت ميري بوجه محتقن يفيض بالحقد والغل نحو آريا التي
رغم ضعفها وجدت من يساندها ويدعمها وهي حتى الذي ظنت
أنه سيساعدها انقلب عليها ويهددها بدينها .

" لاتظنِ أن المعركة انتهت ياابنة ويل ،لا لن أقع بهذه السهولة
وسترين كيف سأعيدك إلى عهدكِ الأول ذليلة على ذلك القيد
المعدني ،لاتستطيعين حتى قضاء حاجتك بمفردك . "

انتفضت عروق آريا وشعرت بأنها لم تعد تحتل أكثر من ذلك
وسارت بسرعة تتنافى مع عودتها الحديثة للمشي من جديد
، وأمسكت أحد المسدسين وصوبت طلقة

كانت ستصيب وجهها ولكنها لم ترد قتلها

" سأقتلكِ سأقتلكِ ، سأنتقم لأمي ولعذابها ولسجنها في ذلك
المكان البارد بلا حياة تستمتعين بفقرها سأجعلك تدفعين ثمن
كل لحظة عاشتها بعيدا عني ، سأجعلك تدفعين ثمن كل يوم
خرجت فيه مني كلمة أمي وأنتِ لاتستحقينها وتسببكِ لهذا
الحادث وحرمانكِ لي من رؤية الناس والمدرسة وعلى إبعاد
والدي وإذلال ديانا ... وإبعاد ديفيد عني، فلتموتي .. ااه . "

بارتجافة خضوع سرت في جسد ميرى ،وقعت مغشيا عليها
من الرعب وهي ترى آريا بوجه منتقم غير معهود ،أفلتت
بأعحوبة فلقد مرت الطلقة يفصل عنها بإنش واحد ،وهذا زاد
عزم آريا على إطلاق النار مجددا لكي ترديها جثة هامة
،ولكن ديفيد تدخل ووضع يديه برفق على المسدس وهمس
بصوت حنون " كفى يارى ،لاتلوثي يدك بهذه المرأة دعي
العدالة تقتص الحق منها ،فأنتِ أظهر وأذكى منها .. هي ميتة
بكبريائها الذي سقط وبغورها الذي دفن في الرمال ."

طلب ديفيد المسدس الملتهب الذي يحمله قلب آريا ثم في لحظة
مفاجئة أعطاهها قبلة على وجنتها تحرك وهو يبتسم تاركا إياها
تذهل ووجهها يصاب بالحمرة .

بعقل مليء بالأسئلة ،كانت آريا تفكر من هذا ؟ ولماذا عاد الآن
؟ هي لم تر وجهه فهو يضع قناعا ،وكيف عرف بأمر هذه
المواجهة المحتدمة؟

نظرت إليه ثم هتفت بصوتٍ عالٍ ملاً أرجاء المكان : " من أنت
،وما الذي جاء بك الآن وما علاقتك بهذه المرأة ؟

نظر إليها ذلك الفارس ثم نزع عنه قناعه وحينها برز وجه لم
يرى منذ زمن ،لم تعرف آريا ملامحه فقالت :

" من أنت ،هل أنتَ شريك لميري أو هل تمثل أنك المنقذ
الحامي ؟

بغصة في قلبه أجاب ذلك الفارس الغامض وهو يجيب عنها :

" لا ،لست شريكا لها أنا شخص ذاق من عذابها أشكالا وألوان
وتجرعت مرارة الحياة وجئت لأنتقم منها ،أنا فقدت عائلتي
وكل ما أملك ولم يعد لي حياة ،أنا ديفيد الذي أقسم بأن يعيد
لوالديه حقهم من هذه المرأة، سأنتقم منها. "

وبكل الغضب الذي في قلبه أمسك المسدس وحاول إصابتها وهي تقف مشدوهة وبنظرات جاحظة تذكرت ذلك الصبي الذي أقصت عائلته بعيدا قبل عشر سنوات فقالت وهي لاتصدق ذلك :

" مستحيل ،كيف أتيت وعرفت مكاني لقد ظننت أنك مت بعد رحيلكم من هنا ."

أمسك ديفيد تلك المرأة وحاول أن يخنقها بيديه وهي تحاول الدفاع عن نفسها ،ولكنه أقوى منها وكأنه يرى والديه أمامه ،أطبق بيديه على عنقه ،ولكن ديانا وآريا تدخلتا ليوقفاه ،فصرخ قائلا :

" دعاني ،سأنتقم منها لقد دمرت حياتي وقتلت والديّ لن أسامحها أبدا ... لا لا ."

حاولت أريا أن تعيده إلى رشده فهتفت بصوت عال :

" لا تلوث يدك بدمها ،إنها لاتستحق أن تنتهي حياتك بسببها انا أعلم بما تشعر به فبسببها عشت عشر سنوات في عذاب وبسببها أصيبت أمي وغاب أبي وحياتي تدمرت وكل شيء انقلب رأسا على عقب ،لذا لاتظنني سأدعها هكذا ."

وفي مشهد النهاية يجب على الشرطة أن تتدخل كملائكة تطهر الأرض من الذنوب ،دوى صفارات الشرطة أمام منزل الأكاذيب لتصطحب ميري ورفيقها إلى منزلهم الجديد .

وبنظرات تشع بالحد تنظر ميري لأريا وهي تراها مقيدة ومكبلة بالأصفاد وتخرج من هذا المنزل مهزومة مطأطأة الرأس ذاهبة إلى المكان الذي تستحقه .

توقفت لثانية قبل أن تخرج ونظرت لأريا ثم قالت:

" لا تفرحي كثيرا ، سأخرج وسأنتقم منك وسأجعلك تعيشين عشر سنوات أخرى من المعاناة ... أيتها القعيدة . "

وبالبتسامة ساخرة خرجت والشرطي يدفعها لكي تخرج وهي مصرة على عدم الخروج والشرطي يدفعها بقوة " هيا اخرجي أيتها المرأة العنيدة ، هل تظنين نفسك كنت ستفلتين بجرائمك ؟ "

توقفت ميري قليلا رغما عن الشرطي ، ونظرت لديفيد وقالت " مالا أفهمه كيف أوقعتم بي ؟ هل كان أحد هنا منكم ؟ "

بالبتسامة ثقة وجه ديفيد حديثه إليها ثم أجاب "

لأنك ظننتِ نفسكِ ذكيةً وتحسبين حساب كل شيء ،ولكنكِ
نسيتهِ أهم شيء ،أن الرجل الذي استأجرته كانت خطة منا
لنوقع بك ،نحن من جعلناه يسير في الشوارع وكأنه متسول
لنوقع بك ،وكما ظننا وقعتِ في الفخ بكل سهولة ."

دفعها الشرطي بقوة حتى خرجت من المنزل وتنفس الجميع
الصعداء وهم يرونها تصعد سيارات الشرطة وتخرج من
المنزل الذي شهد خداعها وأكاذيبها طوال العشر سنوات
لتقضي سنوات لاتعد ولاتحصى في زنزانة باردة كتلك التي
حبست فيها سيري

خرج الجميع من المنزل آريا ديفيد وديانا المقيدة والتي فك
ديفيد وثاقها لترى مشهد نهاية عصر ظلم ميري بعينها فهتفت
بصوت هز أركان الوادي :

" اذهبي ياميري ، اذهبي هناك يقدمون عصائر وحلوى
وسيعطونك ملابس جديدة بدل هذه التي تلبسينها منذ عشر
سنوات أيتها العجوز الهرمة ."

وفي سيارة الشرطة نظرت ميري بوجه محتقن وعينان تشعان
بالحد لديانا التي تسخر منها وقالت :

" لا تفرحي كثيرا ، ستظلين خادمة فهذا قدرك الحقيقي ."

دفعها الشرطي مشيرا لسيارات الشرطة بالتحرك ، وقبل أن
تغيب عن الأنظار هتفت آريا التي كانت تستند على ديانا :

" هي خادمة نعم ، ولكنها تخدم العدالة وأنتِ تخدمين الضلال
والكذب ، هيا اذهبي إلى ذلك المكان ذليلة وحيدة عند النافذة
تنتظرين من يحرك ياميريامين ."

غاب ظلام ميري عن الوادي وحل محله شمس جديدة لاحت
في الأفق وكأنها تخبري ساكني الوادي :

" هيا انهضوا ،لقد أصبح المكان طاهرا .. ازرعوا الورود
وانثروا الياسمين وزينوا المنازل فاليوم هو عيد النصر ."

تنهدت آريا الروائح الزكية التي انبعثت من شجرة الصفصاف
أوان رحيل ميري وكان سموم ميري كانت تمنع الشجرة من
التنفس ،وألقت برسالة عند قدمي آريا أمالت بجسدها لتلتقط هذه
الرسالة وفي هذه اللحظة استأذن ديفيد قائلا : " سأذهب لشرب
بعض الماء فلقد جف حلقي. "

ذهب ديفيد لشرب بعض الماء وعندما عاد وجد آريا تقف
ويديها معقودتين ببعضهما تنظر إليه وكأنما تنتظر جوابا منه
فهتفت : " لم عدت ؟ ، هل ظننت أنك حين تعود سأستقبلك
بالورد والأحضان ، لا نحن لسنا هنا في العالم الوردي ، عد من
حيث أتيت .. هيا هيا ، هيا أين كنت عندما كنت وحيدة بلا أحد
معي ، أرتجف خوفا مما هو قادم لأصدقاء ولاوالدين لأستطيع
الجلوس على ذلك القيد المعدني ، وامرأة تشمت من عجزي
، ولكن لم أكن أريدك فديانا كانت دائما بجواري لذا عد هيا
اغرب عن وجهي."

كان ديفيد يستمع إلى ألمها بغصة في قلبه ود لو أخبرها أنه
كان مقيدا مثلها وفقد والديه وفقد شقيقه منذ زمن ، نظر إليها ولم
يعرف بماذا يجيبها.

بعد مغادرة ديفيد رحلت ديانا بهدوء مفسحة مجالا خاصا لآريا
التي انتبهت على رحيلها وحينها ذهبت لشجرة الصفصاف
ووضعت أصابعها عليها وهمست بصوت خفيض :

" أنا أشكرُكِ يا شجرة الصفصاف منذ اللحظة التي خرجتُ فيها بسبب ندائكِ لي تغيرت حياتي جذريا ،قلتي لي " صحيح أنكِ تأخرتِ ،لكنكِ وصلتني في الوقت المناسب ."

ها أنا الآن أعود إليك ،ولكن ليس كما كنت بل منتصرة على سموم ميري لم تكن رحلة سهلة لكنها استحققت العناء ."

أغمضت آريا عينيها تشعر بدفء الشجرة يتسلل لقلبها وكأنها تغسل قلبها وعقلها من كل الشرور حينها شعرت أن الشجرة تهمس لها :"

تريثي يا آريا هناك أسرار لم تكتشف بعد ،ابحثي عنها ."

فتحت آريا عينيها وما إن فتحتها حتى وجدت رسالة بجانب الشجرة لم ترها قبلا ، ترى من وضعها ومتى وكيف ، ولكنها قررت أن تنفض هذه التساؤلات عن رأسها ، وتستكشف خبايا الورقة .

استندت بجذعها على ظهر الشجرة ثم فتحت الرسالة وبدأت تقرأ :

" إلى آريا ابنتي وحببتي وعمري الممتد حتى بعد وفاتي . هل أنت بخير ؟ لقد اشتقتُ لكِ يا صغيرتي . أود أن أراك وأشم رائحتك ، سامحيني يا آريا على غربتي عنكِ وابتعادي عنك ... أنا آسف يا صغيرتي .. لاتستمعي لكلام أحد فوالدكِ يحبك وقد ابتعد حبا فيك وخوفا عليك ، استمعي إلى ديفيد إنه فتى صالح وشاب مهذب أرجوكِ استمعي إليه وابحثي عني .. ابحثي عني لتكتمل صورة القلادة واعتذري لعزيتي سيرني نيابة عني . "

«طوت آريا الرسالة وضمتها إلى صدرها كأنما تضم والدها، وشعرت بحفيف أوراق الصفصاف يتطاير فوقها ليخبرها بأن نصف الحقيقة قد زال وبقي النصف الآخر، وعلى مقربة من العين وقف ديفيد يراقب آريا وكأنه يتأملها، وفي لحظة التقت عيناها، لحظة التقاء انتظراها مذ عشر سنوات، وهمس صوت في داخلها: "ربما عاد ديفيد، لكن هل عادت الحقيقة معه؟ ... سنعرف هذا عاجلاً أم آجلاً."»

الفصل الخامس والعشرون

ديفيد ... تيموثي، حيث يلتقي الماضي الماضي .

ليلةً ثقيلةً مرت كسلحفاةٍ تزحفُ على الطين، "ديفيد" ينامُ على أريكةٍ في الردهةِ وعقله يسترجعُ ذكرياتِ تلكَ الليلةِ التي لن ينساها طوالَ عمره، تلكَ الليلةِ التي قلبتُ حياته رأساً على عقبٍ وكانت سبباً في تشرّدِ عائلتهِ.

«هكذا قد انتهينا مِنْ كلِّ شيءٍ، هذه الفتاة سأصبحُ الوصيةَ القانونيةَ عليها، والدُّتها قد أصابها الجنونُ ووالدُها مسافرٌ، وسأبعثُ له برسالةٍ منتحلةً صفةَ "سيري" أطلبُ منه ألا يعودَ الآنَ. وبقيَ هذانِ الولدانِ... أنا أشعرُ بأنَّ أحدهما قلقٌ والآخرُ باردُ الأعصابِ، أنا أريدهُ هو.. سيكونُ تابعاً لي، سأعتني به ليغدو فتىً قوياً وغيرَ مرهفِ الحسِّ».

كانَ الولدانِ يقفانِ في الردهةِ؛ أحدهما ينهشُهُ الخوفُ والآخرُ يبدو سعيداً بما حدث. خرجتُ "ميري" مِنَ الغرفةِ بعدَ أنْ انتهتْ مِنْ حبكةِ تمثيليتها، ومعها الطبيبُ والرجلانِ الضخمانِ بعدَ أنْ أعطتَهُم نصيبَهُم مِنَ الاشتراكِ في التمثيليةِ.

سألَ أحدُ الرجلينِ ضخامِ الجثةِ "ميري": "نحنُ سنغادرُ، هل تريدانِ منا شيئاً آخرَ سيدةِ ميري؟"، فأشارتُ إليهما بالنفيِ.

خرجت "ميري" لتجد في الردهة الطفلين يقفان قبالتها؛ أحدهما يفيض قلبه رقةً، والآخر يبدو هادئاً جداً، فوجهت حديثها نحو "تيموثي"، ذلك الطفل الذي يوحى ببرود الأعصاب وكأنما رأت فيه بذرة مثمرة للحقد: "أيها الصبي، ما هو اسمك وما الذي فعله هنا؟".

بنبرة باردة وابتسامة باهتة، اتجهت أنظار "تيموثي" نحو "ميري" وقال لها نازعاً كلفة الاحترام: "وما شأنك بي؟ أنا أفعل ما أريد ولست تابعاً لك كأولئك الذين رحلوا منذ برهة".

أثار جواب الصبي إعجاب "ميري"، وشعرت بأنها أمام مستقبل باهر لطفل سيكون حليفاً رائعاً، فقالت وهي تثني عليه:

"أعجبتني أيها الصغير، يبدو أنك مختلف عن شقيقك هذا، إن وجهه أصفر من شدة الخوف".

نظر "تيموثي" لشقيقه وتحدث بتعالٍ وزهوٍ وكأنه طاووسٌ
ينفشُ ريشه: "أخي؟ دعك منه، إنه مرهفُ الحسِّ وهذا لن
يجلبَ له سوى الضعفِ والذلِّ".

صُعقَ "ديفيد" من لهجةٍ شقيقه وكأنه يرى فيه شخصاً غريباً،
ليسَ توأمه، فهتفَ بذعرٍ يتحدى خوفه: "تيموثي! كيفَ تتحالفُ
معَ امرأةٍ هي السببُ في تدميرِ حياةِ صديقتنا؟ هل نسيتَ
"أريا"؟ إننا مثلُ الإخوةِ وقد تعاهدنا على أن نظلَّ أوفياءَ
لبعضنا ما دما أحياءَ، هل نسيتَ أم أنكَ تتناسى؟".

لم يكثرثُ "تيموثي" لنداءاتِ "ديفيد" المتكررة، ثم انفجرَ فيه
قائلاً: "قلتُ لك من قبلُ إنها ليستُ صديقتي، أنتَ فقط من
تحبُّها، إذن فهي تستحقُّ كلَّ ما حدثَ لها.. هيا اذهب!".

شعر "ديفيد" بغصةٍ مريرةٍ في قلبه وهو يرى توأمه غير مبالٍ
بـ "آريا"، التي وإن لم تكن شقيقته بالدم، فهي شقيقته بالروح،
بل ويتحالف مع من تسببت بإيذائها. عاد إلى منزله **منكسراً
مطأطأ الرأس، ولم ينتبه إلى أنه أسقط القلادة التي تحمل
صورتهم هم الثلاثة.

في منزله، كانت والدته تشعر بالقلق عليهما، فذهبت لتناديهما
ولكنها تراجعَت عندما رأت "ديفيد" قادماً ووجهه يكسوه
الحزن، فأسرعت تطمئن عليه: "ديف، بني ما الأمر؟ لماذا
وجهك شاحب هكذا؟ وما هذه الفوضى التي حدثت قبل قليل؟
هل حدث شيء؟ وأين "تيم"؟".

ارتدى "ديفيد" في أحضان والدته يبكي بصوتٍ مروع وقلبٍ
مكلوم وهو يتذكر "آريا" وما حدث لها، ولم تسأل والدته عن
التفاصيل، بل اكتفت بضمه والتربيت على شعره وكأنها تشعر
بوجعه دون كلمات.

في هذه الأثناء، دلف الوالدُ مِنَ البابِ قائلاً: "أهلاً، ألم تشتاقوا إليّ؟ وأين "تيم"؟". خرج "ديف" مِنْ حُضْنِ والدتهِ وقالَ بخوفٍ: "أبي، هل تعرفُ "آريا" صديقتي مِنَ المنزلِ المجاورِ لشجرةِ الصفصافِ؟".

اندهشَ "مايكل جين" مِنَ السؤالِ المفاجئِ: "نعم، ما بها؟ ولماذا تذكرُها فجأةً؟ وأين "تيم"؟ هل لا يزالُ يلعبُ بعيداً؟".

هتفَ "ديفيد" بذعرٍ: "تيموثي ذهبَ عندَ "ميري"، خالةِ "آريا". لقد سجنْتُ والدتها، و"آريا" الآنَ فاقدةٌ للذاكرةِ ولا تستطيعُ الحركةَ، و"تيموثي" الآنَ معَ تلكَ المرأةِ!".

صُعقَ "مايكل" مما سمعهُ، وظنَّ أنَّ ابنهَ يمزحُ، فقالَ ساخراً: "ما هذا الذي تقولُهُ يا ولدٌ؟ هل ستشتركُ في تمثيلِ أحدِ الأفلامِ؟ هيا اذهبْ واستدعِ شقيقكَ وقلْ لهُ إنَّ والدكَ عادٍ.. وكفى هراءً".

وبينما يدورُ هذا الحوارُ، طرقتُ "ميري" البابَ بعنفٍ، فذهبَ "مايكل" لفتحِهِ غاضباً: "ما هذا الضجيجُ؟ مَنْ الذي يطرقُ بهذا الشكلِ؟". فوجئَ بامرأةٍ يراها لأولِ مرّةٍ، يتطايرُ الشرُّ مِنْ عينيها، تهتفُ بحقدٍ واضحٍ: "هل أنتَ مالكُ هذا المنزلِ؟".

ردَّ "مايكل" بجرأةٍ: "مَنْ أنتِ أيُّها المرأةُ؟ ولماذا تصرخينَ هكذا؟ ألم يعلمكِ أحدٌ الاستئذانَ؟".

قالتُ "ميري": "أيُّها الرجلُ، المنزلُ الذي تسكنُ فيه الآنَ هو ملكٌ لـ "سيري"، والآنَ أصبحَ ملكاً لي، بما في ذلكَ الوادي كُلُّهُ. هيا ارحلِ أنتَ وزوجتُكَ وذلكَ الصبيُّ الضعيفُ.. ودع لي الصبيَّ الآخرَ، ولا تقلقِ سأؤمنُ لكم فرصةً أفضلَ في باريسَ، منزلاً وعملاً أفضلَ، ما رأيك؟".

ثوانٍ ثقيلةً مرتُّ على قلبِ ربِّ الأسرةِ وهو يسمعُ صكَّ
ترحيلهِ، فوقفَ بصلايةٍ وهتفَ: "اذهبي منْ حيثُ أتيتِ! كبرياءُ
الإنسانِ وكرامتُهُ لا تُشترى بالمالِ. نعمُ نحنُ فقراءُ، وقد
استأجرنا المنزلَ منَ السيدِ "ويل"، وحينما يعودُ ويطلبُ منا
الرحيلَ سنفعلُ، غيرَ ذلكَ فلا! هل فهمتِ؟".

أخرجتُ "ميري" ورقةً ولوحتُ بها في وجوههم: "هذه الورقةُ
هي الإثباتُ القانونيُّ، وأنا لستُ بحاجةٍ لإذنٍ في أرضي، هل
فهمتِ؟"

بنقةٍ كشجرةِ الصفصافِ، وقفَ "مايكل جين" يضمُّ زوجتهُ
وابنهُ قائلاً:

"سنرحلُ مِنْ هَذَا الْمَنْزَلِ، لَيْسَ لِأَنَّكَ أَرَدْتَ ذَلِكَ، بَلْ لِأَنَّ لَنَا نِعِيشَ فِي مَنْزَلٍ تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ النَّتْنَةِ". التفتَ لِزَوْجَتِهِ وَابْنِهِ بِنَظَرَةٍ شَمُوحٍ وَكَأَنَّهُ يُخْبِرُهُمْ: "هَذِهِ الْأَرْضُ بَاتَتْ دَنَسَةً، وَنَحْنُ سَنَرْحَلُ لِأَرْضٍ طَاهِرَةٍ".

شعرتُ "ميري" بِنَشْوَةِ الْفَيْزِ وَهتفتُ بِصَوْتٍ رَخِيمٍ:

"أَمَامَكُمْ سَاعَتَانِ لِتَلْمُوا أَثَاثَكُمْ وَتَرْحَلُوا، وَإِلَّا سَأَجْعَلُ رِجَالِي يَطْرُدُونَكُمْ كَمَا لَفِظْتُمْ الْأَرْضَ الْآنَ". غَادَرْتُ "ميري" وَمَعَهَا "تيموثي" الَّذِي فَضَلَ الْوُقُوفَ فِي صَفِّ الشَّرِّ مُعْتَقِداً أَنَّ الْقُوَّةَ فِي الْقِسْوَةِ.

فِي مَنْزَلِ عَائِلَةِ "ويل"، كَانَتْ "آريا" جَالِسَةً تَصْرُخُ وَتَشْعُرُ بِالْخَوْفِ، وَ"ديانا" تَقْفُ أَمَامَهَا عَاجِزَةً عَنِ التَّصَرُّفِ مَعَ هَذِهِ الطِّفْلِ الَّتِي فَقدتُ كُلَّ شَيْءٍ.

"اهدئي يا صغيرتي، أنا من اليوم ساكونُ كوالدتكِ، سأعتني بكِ وأنا واثقةٌ بأنك ستستعيدينِ قدرتكِ على المشي. اسمي ديانا فيرميه، قد لا أكونُ جميلةً أو غنيةً، لكني لستُ سيئةً مثلها".

حاولتُ "ديانا" طمأنةَ الطفلةِ المكلومةِ، وبدأتُ بالتربيتِ على شعرِها وغناءِ أغنيةٍ كانتُ والدتها تغنيها لها:

"Dans ses bras" (حينَ يضمني بينَ ذراعيه)

"Il me parle tout bas" (يهمسُ لي بصوتٍ منخفضٍ)

"Je vois la vie en rose" (فأرى الحياةَ باللونِ الوردِيِّ)

رددتِ الأغنيةَ حتى هدأ صراخُ "آريا"، فقالتُ لها "ديانا":

"أنتِ فتاةٌ مطيعةٌ، ستجلسينَ على كرسيِّ جميلٍ لنرى الخضرةَ والنهرَ في الوادي، ألا تريدينَ ذلك؟". شعرَ قلبُ "آريا" الصغيرُ بأنَّ هذه المربيةَ لن تتركها.

قطعَ هذا الهدوءَ صوتُ صريرِ عجلاتٍ؛ خرجتُ "ديانا" لتجدَ "ميري" ومعها كرسيٌّ متحركٌ. هتفتُ "ميري": "خذي هذا الكرسيَّ، منَ اليومِ ستجلسُ عليه وتنتقلُ لغرفةٍ أخرى. أنتِ ستتولينَ تربيتهَا، وأمامَ الجميعِ أنا والدتها، ووالدها سافرَ في رحلةٍ عملٍ وسيعودُ قريباً، مفهومٌ؟".

أومأتُ "ديانا" موافقةً فهي لا تملكُ خياراً آخرَ. وفي الغرفةِ، كانتُ "آريا" ترتجفُ منَ صوتِ صريرِ الكرسيِّ وكأنَّ شبَّخَ الخوفِ يطاردُها. دخلتُ "ميري" تجرُّ الكرسيَّ قائلةً بنبرةٍ كذبٍ مغلفةً بالحنان: "اهدئي يا حبيبتي، والدتكِ هنا، وهذا الكرسيُّ سيأخذكِ حيثَ تريدينَ".

لم تصدقها "آريا" وتراجعت للخلف محتمية بالفراش؛ فقلبها يرفض الأمان مع هذه المرأة. عادت نوبات الخوف وصراخ "آريا"، مما جعل "ديانا" تأتي مسرعة. قالت "ديانا" لـ "ميري":

"أذهبي أنتِ سيدتي وأنا سأعتني بها". غادرت "ميري" الغرفة، فاقتربت "ديانا" من الصغيرة بحنان: "تعالِ يا صغيرتي، لنغادرَ إلى غرفةٍ جميلةٍ تطلُّ نافذتها على الوادي".

على الجانب الآخر، كانت عائلة "ديفيد" تستعدُّ للرحيل، تاركةً خلفها عشرَ سنواتٍ من الذكريات. ألقى "ديفيد" نظرةً أخيرةً على غرفته، ربتَ بيده على سريره وهمسَ له: "لا تقلق، سنعودُ، وإن طال غيابنا سنعودُ أقوى وأفضلَ مما قالوا".

نادت والدته: "هيا يا ديف، أحضر أشياءك سنغادر". حمل
"ديفيد" ثيابه وبقايا روح مكسورة، وسار مع والديه يودعون
منزل عمرهم. نظر "مايكل" لزوجته "مارينت" التي كانت
تري في هذا المنزل جنة رغم تواضعه. قال "مايكل": "هيا، لم
يعد لنا مكان هنا، سنرحل ولكن قلوبنا ستظل وفيّة. ما دمنا معاً
سنتحمل أي شيء".

رحل "مايكل" تاركاً خلفه ابنه الذي اختار البقاء في قبضة
الشر. نظر "ديفيد" للمرة الأخيرة للمكان الذي عاش فيه منذ
عمر الثالثة؛ عشر سنوات لن تُنسى بسهولة. بدأت قطرات
المطر تهطل وكأنّ الأرض ترفض مغادرتهم، واختلطت رائحة
الصفصاف برائحة المطر كأنّها تهمس:

"ستعودون يوماً ما"

رحل "ديفيد" ولسان حاله يقول: "سأعودُ يا آريا، كوني
بانتظاري. سأعودُ بعدَ عشرِ سنواتٍ لنقفَ تحتَ ضوءِ القمرِ
وتكونَ شجرةُ الصفصافِ شاهدةً على زفافنا".

من نافذةِ غرفتها، جلستُ "آريا" على ذلك القيدِ المعدنيِّ وهي لا
تذكرُ مَنْ هي، تراقبُ المطرَ وتلمحُ عائلةَ "ديفيد" وهي تغادرُ
بقلوبٍ حزينةٍ.

رغمَ غيابِ الذاكرةِ، شعرَ قلبُها بالصبيِّ الذي يلوحُ لها. هتفَ
"ديفيد" بصوتٍ عالٍ:

"سأعودُ يا ري! إياكِ والنسيانَ، سأفي بعهدي!".

لمست "آريا" زجاج النافذة بأصابعها تلوح له، لكن "ميري"
دخلت بغتة لتقطع تلك اللحظة، قائلةً بزيغٍ: "صغيرتي، لماذا
تنظرين للنافذة بحزن؟ كلي لتستعيدي قوتك وتقفي على قدميك
ثانيةً". تراجع "آريا" في كرسيها بخوفٍ؛ فرائحة هذه المرأة
لا يألها قلبها.

أدركت "ميري" أنها تحتاج بعضاً من الوقت، فقررت التظاهر
بالصبر لتكمل خديعتها التي ستستمر عشر سنوات، حتى تأتي
شرارة الرسالة الأولى من "ديفيد" لتخرج "آريا" من وحدتها
إلى عالم الحب.

الفصل السادس والعشرون

رجل الظل وعطر الصفصاف.

أفاق ديفيد من على ذكرياته منتفضاً، وكأنه رأى كابوساً مؤلماً،
تذكر تلك اللحظات حينما خرجوا منكسرين ينظرون لماضيهم
ويودعونهُ بألمٍ.

ولتيموثي شقيقه الذي اختار ميرى، فغدرت به من أول يوم
وألقته إلى غياهب الغابة وحيداً وشريداً حتى خرج من تلك
الغابة ذاهباً إلى الطرقات تلوش في وجهه وتذيقه مرارة الأيام.

وخارج هذا المنزل يقف رجلٌ يحمل ظلاً بارداً وعينين كعيني
الثعلب، وقلباً بارداً كالثلج ويرتدي معطفاً طويلاً كقطاع الطرق
كأنما ينظر إلى ماضيه الذي تركه باختياره ولعائلته التي ابتعد
عن دفنها لطريق الشر والغدر فكان أول من عُدر به وألقي
للطرقات تعلمه قسوة الأيام.

مسح ديفيد وجهه وكأنما يبعد عن نفسه هذه الذكريات التي
ستظل طيفاً يلاحقه في الماضي والحاضر، نظر إلى المنزل
حواله وهو يتذكر أنه غفا بعد تلك المواجهة المحتدمة ليلة أمسٍ.

طرق الباب على غرفة آريا التي نامت هي وديانا على نفس الفراش، ولم تستيقظ إحداهما إلا على صوت طرق الباب، فركت آريا عينيها بتثاقلٍ تنهض من غفوتها ونزعت عنها الغطاء، ولم تصدق أنها قامت من غير الجلوس على ذلك الكرسي، شعرت بالسعادة وكأن نسيم الحياة السعيدة قد بدأ يدب في أرجاء هذا المنزل.

طرق ديفيد الباب فنهضت آريا لتفتح الباب فوجدت ديفيد يقابلها بابتسامةٍ صغيرةٍ زينت محياه عندما رآها وكان وجهه ينير بروياها.

"صباح الخير على عطر الصفصاف، كيف حالك؟ كيف كانت ليلتك؟ هل نمت بعمق؟"

تسللت أسئلة ديفيد المتلاحقة لقلبها كرياح تأتي بالخير والبشرى لمن تقابله.

"صباح النور، أنا بأفضل حالٍ. أنت كيف كانت ليلتك؟ هل استطعت النوم على تلك الأريكة؟"

شعورٌ بالسعادة تسلل لروحه وكأنه استعاد تلك الذكريات السعيدة من الطفولة البائسة التي قضاها بعيداً عنها.

التقت أعينهما ببعضهما وكان الزمن توقف لثانية، رأت آريا ملامح وجهه المتعبه وكان الزمن قد أخذ منه حظه، فقالت وهي تشعر بالقلق عليه: "ديف، أنتَ لم تخبرني عن نفسك، كيف كنت تعيش وما الذي حدث بعد مغادرتكم؟ وأين هو شقيقك؟"

قبل أن يجيب عن أسئلتها، طرق الباب شخصٌ ثلاث طرقاتٍ، فأطفت ديانا المذياع ثم ذهبت لترى من، ففوجئت برجلٍ طويلٍ يحمل ابتسامةً باهتةً ينظر إليها نظرةً حملت الخوف في قلبها فقالت بصوتٍ مرتجفٍ: "من أنت؟ هل تريد شيئاً؟"

لم يرد عليها وإنما دلف إلى الداخل وكأنه يعرف المكان، نظر بعينيه فوجد شاباً وفتاةً يقفان سوياً فقال موجهاً حديثه لذلك الشاب: "هل أنت ديفيد مايكل جين؟"

لم يكن ديف في حاجةٍ لسؤاله ليعرف أنه شقيقه فقلبه الذي عاش معه يعرفه حتى لو غدر به: "لِمَ عدتَ يا تيموثي؟ ألم تختَر طريق ميري؟ رأيت كيف تظل وفيّةً لتابعيها؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ هل ظل ميري كان أفضل؟ هل أعطتك الحنان الذي حرمت نفسك منه؟"

صُعقت آريا مما سمعت؛ أيعقل أن هذا هو تيموثي الذي أَلقت به ميري خارجاً ليلة الحادثة وظل يترجاها ألا تطرده، ولكن قلبها المغلف بالصوان رفض ذلك، فإذا كانت أدت ابنة شقيقتها وتسببت في جعلها تجلس على كرسي، ألن تفعل ذلك مع الغريب؟

اقترب ذلك الرجل خطوةً وكلما اقترب خطوةً زاد تمسكه بآريا التي كان يخبئها خلف ظهره، كأنما يخشى عليها منه. توقف ذلك الرجل ثم قال موجهاً حديثه لديفيد:

"لماذا تحبها كل هذا الحب؟ هل هي أغلى من شقيقك؟ أنا أعلم أن ما فعلته لا يُغتفر ولكن أخبرني ماذا حل بأبي وأمي؟"

بغصةٍ مريرةٍ في قلب ديفيد وقف وهو يتذكر والديه، فبعد رحيلهم عن منزلهم، ذهبوا للعيش في ليون عند أحد أقربائهم، ظلوا هناك مدةً من الزمن حتى استأجر والده شقةً صغيرةً ذهبوا فيها، ولكن بعدها بدأت صحة والدته تنهار شيئاً فشيئاً وهي تتذكر ابنها الذي تركهم، وحالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ووالده عاجزٌ عن فعل شيءٍ، فباع كل ما يملك ليحضر لها الأطباء ولكن الأوان قد فات وسلمت روحها لبارئها.

"لا تذكر والدينا أنت لا يحق لك ذلك، والدتك.. ماتت من الحزن بسببك قبل ثمان سنواتٍ ووالدك رحل السنة الماضية وكأنه لم يحدث فراقها، وأنا وجدت عملاً وعملت بالحلال لكني لم أنفذ وصية والدي بأن أبحث عنك، ونعم أنا أحبها وسأظل أحبها لأنها بقيت وفيّةً لي ومن اختار طريق ميري فليذهب إليها.. اذهب إليها ستجدها هناك في ذلك المكان الذي تستحقه."

بنظراتٍ منكسرةٍ نظر تيموثي إلى وجه أخيه يطلب العفو منه
ولكن نظرات الاستعطاف لم تجد معه فقال وهو يشير إلى
الباب:

"اذهب يا تيموثي واحمل ماضيكَ معك، نحن لسنا شقيقين، من
اختار ظلامٍ ميري عليه ألا يعود نادماً."

بعيونٍ منكسرةٍ تحرك تيموثي وهو يحرك ذيول خيبتة، وكأنه
قد ظن أن شقيقه قد يلين ويعفو عنه ولكن صورة والديهم لن
تفارقهم وستظل طيفاً يلاحقه بالذنب طول عمره.

ولكن قبل أن يغادر أوقفته آريا قائلةً:

"لِمَ فعلت ذلك؟ لِمَ كنت شريكاً لميري؟ ولماذا تكرهني إلى هذا الحد ولماذا ساعدتها على أن أقع من على الحصان ذلك اليوم ولمَ لم تساعدني؟ لِمَ قلت ببرودٍ هي من سقطت بإرادتها؟ لقد كنت أعدك صديقاً حميماً مثل ديفيد لم أكرهك ولم أحمل في قلبي ذرة كرهٍ لك، هل كنت تشعر بالغيرة من اهتمام ديفيد بي؟"

ببرودٍ وقف أمامها ثم أجاب بابتسامةٍ باهتةٍ: "نعم كنت أكره اهتمامه بك، جلوسه طوال الوقت معك بينما أنا وحيدٌ لا أحد يلعب معي، وهو يضحك معك من قلبه تركضان وتمرحان معي، لذا عندما رأيت ميري ذلك اليوم وهي تصوب إبرةً نحو الحصان شعرت بالسعادة وأحسست بأن هناك من يفهمني، رؤيتك على الأرض مدرجةً بدمائك جعلتني أشعر بالسعادة، ولكن رغم كل ذلك لازال يشعر بالقلق عليكٍ لذا سأظل مقتنعاً بأنك من سقطت بإرادتك... هههه."

بضحكةٍ ساخرةٍ ظل تيموثي يضحك وهو يتذكر ما حدث وكأنه
قد رأى فيلماً أو شيئاً كوميدياً وليس معاناة فتاةٍ فقدت ذاتها
وعاشت في الضلال لعشر سنواتٍ حتى جاءت رسائل ديفيد
كالنور الذي ملأ قلبها بعد عشر سنواتٍ.

بغرورٍ كانت عيناه تجولان على أخيه، وديفيد واقفٌ كالتمثال
يحمل حزنًا مكتوماً في عينيه وكان هناك قطعةٌ صغيرةٌ تخبره
بأن شقيقه يستحيل عليه فعل ذلك، ولكن الحقيقة أحياناً تكون
أقسى من الخيال.

نظر ديفيد لشقيقه ثم صرخَ بكل الغضب المكتوم في صدره
وذهب للكمة ضربةً أردته على الأرض، أمسكه من تلايب
قميصه وقال:

"أنت من قتل والدينا، لن أسامحك أبداً لن أسامحك أبداً."

نظر تيموثي إلى فمه الذي أصيب من اللكمة فنظر لشقيقه ببرودٍ ثم قام يرد له اللكمة هو الآخر، وكأنه يفرغ غضبه غير المبرر: "أنتَ لستَ ملاكاً، أنا من كان يستحق تلك الألعاب وذلك الاهتمام، أنا أيضاً كنت طفلاً يريد اللعب وقضاء الوقت معك لكنك اهتمت بفتاةٍ أنانيةٍ مرفهةٍ وتافهةٍ، ونعم تستحق كل ما حدث لها ولو عاد الزمن بي سأذهب مع ميري ألف مرة.. هل فهمت؟"

وبلكمةٍ أخرى أرداه ديفيد أرضاً يضربه ويرد له تيموثي الضربة حتى أصبح وجههما مليئاً بالكدمات، شعرت آريا بالخوف على ديفيد الذي شعرت بأنه لا يستحق ذلك.

وفجأةً ورغم التعب الذي يشعر به، أخرج المسدس من جيبه ووجه المسدس لأخيه يريد قتله فصرخت آريا وديانا خوفاً، فقال وهو يضغط على الزناد:

"سأقتلك يا تيموثي، لن أدعك تعيش لن أدعك تعيش.. هيا اذهب إلى الجحيم أيها الوغد."

طلقةٌ خرجت من المسدس باتجاه تيموثي مصيبةً كتفه في مشهدٍ صعبٍ لإخوةٍ فرقتهم العداوة وأكل الحقد قلب أحدهما.

وضعت أريا يديها على فمها ولم تصدق نفسها من هول الصدمة فصرخت خوفاً وكأنها رأت شبحاً، وديانا تحرق بصدمةٍ تنظر للأخوين أحدهما يمسك المسدس والآخر يمسك كتفه التي تنزف.

وضع تيموثي يديه على كتفه التي تنزف بشدةٍ ولشقيقه الذي يمسك المسدس في مشهدٍ صادمٍ لإخوةٍ فرقتهم العداوة كفرقة قابيل وهابيل.

"سأنتقم منك يا ديفيد أنتَ وهذه المدللة وسأريك انتقامي،
سأريك سأريك."

غادر تيموثي المكان وهو يمسك كتفه التي تنزف كقلب أخيه
الذي ينزف فبرغم غضبه منه إلا أنه كان يتمنى لو كان شقيقاً
جيداً بدلاً من كونه فتى حقوداً.

بعد مغادرة تيموثي ساد المكان صمتٌ قاتلٌ وكان وجوده جعل
المكان خانقاً وملاًه بعطورٍ سامةٍ.

في هذه اللحظة استيقظت سيرى وشعرت بالخوف من صوت
الرصاص الذي سمعته وعادت لهذيانها وصرخاتها، وأيضاً
وجودها في هذه الغرفة وأخذت تصرخ وكأنها ترى طيف
ميري أمامها يلاحقها.

"ابتعدي.. هش هش لن تأخذي ابنتي.. ويل اجعلها تبتعد."

بهذه الكلمات ظلت تصرخ وهي تشعر بالخوف مما جعل
الجميع يهرعون إليها ليروا ما الأمر.

كانت سيرى منزويةً في جانب السرير، وتشير بيديها لشيءٍ
تراه أمامها كذبابٍ أو شيءٍ ما.

حاولت آريا الذهاب لتهدئة والدتها وهي تقول:

"اهدئي أمي، أنا هنا ميرى ذهبت للجحيم.. لا تخافي.. أنا هنا
موجودةٌ لأجلك."

رغم الخوف الذي اعتلى قلب آريا قبل قليلٍ من صوت
الرصاص إلا أنها شعرت بالخوف أكثر على والدتها التي زاد
صراخها وبكاؤها كطفلٍ صغيرٍ يدبب لأن أحداً سرق ألعابه.

مدت أريا يديها محاولةً الاقتراب منها، وهي تغني بصوتٍ
حنونٍ:

"dans ses bras"

(حين يضمني بين ذراعيه)

"Il me parle tout bas"

(يهمسُ لي بصوتٍ منخفضٍ)

"Je vois la vie en rose"

(فأرى الحياةَ باللونِ الوردِيِّ)

بدأت آريا في غناء هذه الأغنية وشيئاً فشيئاً بدأت سيرى بالهدوء وقلت نوبات الخوف واستكانت وحينها جلست آريا على السرير وهي تمسد على شعرها وظهرها محاولة تهدئتها وهي تقول:

"لا تخافي أُمي، إنها ليست هنا، أنا معك الآن ولن أتركك. أُمي أأست سعيدة لأنني معك أنا أريد أن أعودي لطبيعتك. قلبي يتمزق لرؤيتك هكذا."

كان ديفيد يقف خارج الغرفة ينظر لآريا وهي تهدئ والدتها وقد شعر بغصة في قلبه لرؤيتها هكذا، فقد كان في طفولته يراها سيدة أنيقة ومنتقفة، والآن هي بهذا الضعف فتوعد في سره:

"سأريك يا ميرى سأنتقم منك على ما فعلته بهذه المسكينة وآريا وعلى أنك كنت سبباً في معاناتنا ووفاة والديّ ظلماً بسببك وبسبب.. تيموثى."

شدت آريا الغطاء على والدتها ودثرتها جيداً حتى نامت، وديفيد يقف خارجاً يضم على قبضة يديه حتى ابيضت مفاصله وبداخله غضبٌ مكتومٌ تجاه تيموثى وميرى، وكل من تسبب بمعاناة سيرى وفقد والديه.

خرجت آريا من الغرفة ووجدت ديفيد يقف بعينين محتقتين، فقالت وهي تضم يديها ليديه: "ديفيد لا تقلق، سننتقم منها ونريهما أن قوة الحب تهزم قوة الغدر."

ضم ديفيد قبضته بيديها وقال بصوتٍ رخيم: "سنفعل هذا معاً، هناك أمورٌ كثيرةٌ أود أن أحدثك بها أريد أن أظل أنظر إلى عينيك بدون كللٍ، أريد أن نكون معاً... آريا هل...؟"

وقبل أن يكمل ديفيد جملته حدث شيءٌ

غريبٌ وهو أن هناك من كان يصرخ في الأسفل فطن الاثنان إلى أن ديانا وحدها، فأمسك بيديها وسارا مسرعين ليريا ما الأمر.

كانت ديانا في الأسفل عندما فوجئت بشيءٍ غريبٍ وهو أن السيد ويل يقف أمامها، ولكنه يبدو ضعيفاً ولكنه واقفٌ على قدميه.

"من أنت؟ وما الذي تريده منا.. هيا ابتعد، نحن لا نريد ميري وشرها.. هيا ابتعد."

بهذه الكلمات هتفت ديانا في وجه الغريب الذي جاء بلا استئذانٍ، تريد طرده وإبعاده من هنا.

نزل ديفيد وآريا ليجدا ديانا تصرخ لرجلٍ غريبٍ يبدو عليه ملامح الضعف ولكنه يبدو متماسكاً، رجلٌ أبيض يكسو الشيب شعره وجهه مميزٌ بالندبات كأن الأيام أخذت حظها منه.

نظر ديفيد لذلك الرجل الذي شعر وكأنه يعرفه جيداً، ربما قد غيرته الأيام ولكن ديفيد لم ينسَ صورته المعلقة في هذا المنزل ويوم رحيله عندما كان عمره خمس سنواتٍ وهو يوصيه بآريا أن يعتني بها ويحافظ عليها رغم صغره، لكنه لم ينسَ هذا اليوم ولا تلك اللحظة.

وهنا هتفت آريا بكلمةٍ واحدةٍ نحوه: "أبي".

الفصل السابع والعشرون

ندباتٌ من الماضي .

جرحُ غائر في قلب "ويل ديمتري" الذي غاب لسنوات عن زوجته وابنته، وحينما عاد وجد كل شيء قد استحال إلى رماد. ابنة كانت فاقدة لحركة قدميها ولا تزال حديثة العهد بالمشي، وزوجة لا تذكر شيئاً من ماضيها سوى بعض التتمات والكلمات المتقطعة، وكان ميري رغم رحيلها ستظل طيفاً يلاحقها طوال عمرها. عاد بندوب وجراح، فهل يا ترى سيعالج حاضره ندبات الماضي؟

في منتصف الردهة، كان ديفيد وآريا قد نزلا على صوت صراخ ديانا التي ذعرت حين رأت رجلاً غريباً لا تعرفه. هنا، هتفت آريا بصوتٍ جهوري هزَّ أركان المكان، وكان الكلمة قد انعتقت من روحها: "أبي!".

وقفت ديانا مشدوهة؛ أيعقل أن هذا هو ويل ديمتري؟ الوالد الذي اختفى منذ زمن تاركاً خلفه أمّاً وابنة يواجهان الجراح وحدهما.

اقتربت آريا من ذلك الغريب وهي لا تكاد تصدق عينيها،
تساءلت بغضبٍ مريـر: "لماذا غبتَ كل هذه المدة؟ ولماذا عدتَ
الآن؟ هل تظننا كنا نحيا في نعيم؟ ألم تعلم العذاب الذي أذاقته
ميري لنا جميعاً؟ ألم يرق قلبك لنا ولو مرة طيلة تلك السنين؟
ألم يخطر ببالك كيف نعيش؟ ألم تعلم أن أمي كانت حبيسة طيلة
عشر سنوات لا أعلم عنها شيئاً، وأنا فاقدة للذاكرة، عاجزة عن
الحركة، أسيرة قيدٍ معدني؟ وديفيد.. فقد والديه بسببها وبسبب
شقيقها! لم عدت الآن؟ هل تظننا سنستقبلك بالعناق والقبلات؟
نحن هنا لسنا في النهايات السعيدة.. نحن في الواقع المريـر."

كلماتٌ كالسهام نفذت إلى قلب ويل، كلمات ابنته تركت ندوباً أعمق من ندبات الزمن. وقف ينظر إليها بكسرٍ، ثم تحدث لأول مرة: "لا تظلميني يا ابنتي، أنا أيضاً كنت أظنكم رحلتم. في اليوم الذي كان من المفترض أن أعود فيه، أحدهم بعث إليّ برسالة أخبرني فيها أن ابنتي وزوجتي قد ماتتا في حريقٍ التهم منزلنا، وأن جثتيكما قد تفحمتا. شعرت بالصدمة وكان العالم انتهى، لم أعرف ماذا أفعل. في اليوم التالي ركبت أول سفينة لأصل إلى هنا، ولكن السفينة كادت تغرق ونجوت بأعجوبة، وظلت أهيم في الشوارع حتى استضافني رجلٌ صالح، ومكنت عنده أعيش على ذكراكم، معتقداً أنكم فارقتم الحياة."

شعرت آريا بغصةٍ في حلقها وزاد كرهها لميري أضعافاً، فقالت بغضبٍ مكتوم: "ولماذا صدقت مرسل الرسالة؟ لماذا لم تتبين خطه؟ هل كانت ميري؟ ألم يخطر ببالك أن امرأة تغار من أختها قادرة على فعل أي شيء؟ لماذا صدقت الرسالة وكذبت الحقيقة؟"

أثارت تلك التساؤلات حيرة ويل، وقف عاجزاً عن الإجابة.
أخبرها أن خط الرسالة كان يشبه خط سيرى إلى حدٍ مدهل،
وبأن خصلة من شعرها كانت مرفقة مع الرسالة؟

عندما طال صمته، أجابت آريا بدلاً عنه: "سأقول لك.. ميرى
هى من فعلت ذلك لكي تقتل أى أملٍ يبقينا على قيد الحياة.
ميرى تسببت بعجزى، وحبست والدتى وأذهبت عقلها، وتسببت
بموت والدى ديفيد. إذاً، لماذا عدت الآن؟ هل كنت تنتظر عفواً
وسماحاً؟ وكيف عرفت أننا لا نزال أحياء؟ وإن كنت تعرف،
لماذا لم تكن أنت من يرسل إليّ الرسائل ويغذيها بالأمل؟
أخبرني.. لماذا لم تعد؟"

أجاب بغصةٍ مريرة: "سامحيني يا ابنتي، واطلبي من والدتكِ
الصفح. لقد كنتُ مجبراً؛ فالخط الذي كُتبت به الرسالة كان
يشبه خط والدتكِ إلى حدٍ كبير. ديفيد هو من عثر عليّ، هو من
أوصلني إليك، وهو من أخبرني أن الحريق كان كذبة وأن
ميري انتحلت شخصية والدتكِ. هو من جاء لتحريرني؛ فقد
كنت أعيش في سجن الوهم والعذاب طيلة عشر سنوات.
سامحيني يا آريا، ربما كانت والدتكِ محبوسة، ولكنني كنت
محبوساً أيضاً في كذبة كبرى."

نظرت آريا لديفيد الصامت، وشعرت بأن قلبها يميل لمسامحة
والدها؛ فقد أدركت أنه كان ضحيةً مثلها، وأن العدو الحقيقي
الذي يجب الاقتصاص منه هو .

شعر ويل بالحزن وانكسارٍ في روحه وابنته تحدثه هكذا، فقال
بصوتٍ ضعيف: " أرجوكِ يا ابنتي أنا كنتُ مجبراً، تمنيتُ طول
عمرني أن نكون أسرةً واحدة، ولكنّ ماحدث شئت شملنا
، أرجوكِ دعيني أراها . أريدُ أن تسامحني وتعفو عني . "

لم يرق قلبها له ولم يتأثر إنشا واحداً ، اقترب ديفيد يحاول
التأثير عليها فقال :

" دعيه ياأريا ، يكفي ما عاناه بعيداً عنكم ، أنتِ لاتعرفين
ما عاناه ."

ثم نظر لها وقال بقلب مكسورٍ يعرف مرارة فقد الوالدين :

" لقد أعطتكِ الحياةُ فرصة لتجمعي شمل والديكِ فلا تهدريها ،
فالفرصة التي تأتي اليوم ، قد لاتأتي غداً ."

شعرت آريا بغصة في قلبها من كلامها ،وكأنه يحاول مداواة قلبه الملکوم بأن يجتمع شمل والديها ،فأشارت لوالدها أن يذهب وهي تشعر بالحزن .

في غمرة هذا اللقاء، سأل ويل بلهفة: "أين هي سيرى؟ لقد اشتقت إليها.. أود رؤيتها."

التفتت آريا نحو غرفتها، وبالرغم من الحزن الساكن في قلبها، أشارت للباب قائلة: "إنها في غرفتها تنتظرك يا أبي. ربما غابت ذاكرتها، وربما غيرت السنون ملامحك، لكن قلبها سيعرفك."

بخطواتٍ واثقة تحرك ويل، كأن قلبه هو بوصلته. فتح الباب ليجد امرأة تجلس بجانب النافذة، تدندن بصوتٍ خفيض كأنها تنتظر طيفاً غاب عنها. التفتت حين ناداها باسمها: "سيرى.. حبيبتى.. ألم تشتاقي إليّ؟"

رأت رجلاً يكسو الشيب شعره، وجهه مليء بندوب الأيام.
قالت بصوتٍ متهدج وهي تمد أصابعها النحيله نحوه: "ويل؟
هل هذا أنت؟ هل عدت من الموت أم أن هذا طيفك؟"

اقترب منها بلهفة المشتاقين وقال بصوتٍ اختصر سنين
العذاب: "بل أنا أقف أمامك الآن يا حبيبتي. أنا الحقيقة التي
حاولت ميري دفنها تحت جذور الصفصاف، لكنني قاومت
وعُدت إليك. جنّت لتلتئم جروحنا من جديد. سامحيني لبعدي
عنك.. سأنتقم من ميري على كل يوم قضيته بعيداً عنك، وعلى
كل لحظة وهم عشتها. تعالي إليّ لنرمم أرواحنا."

ارتمت سيرتي في حضنه، وامتزجت شهقاتها بنحيبه في مشهدٍ
لترميم الأرواح المصابة، بينما كان ديفيد وآريا وديانا يراقبون
المشهد من خلف الباب بتأثر.

نظر ديفيد إليهما، وهمس في سره مخاطباً والديه الراحلين:
"ارتاحا.. سأقتص لكما، وأري ميرى أن العجز الحقيقي يكمن
في القلب الذي لا يعرف المحبة." ثم التفت نحو آريا ممسكاً
بيديها وقال: "غداً يا آريا، سنذهب لميرى لنضع النقاط على
الحروف، ونريها عاقبة أفعالها."

الفصل الثامن والعشرون

الكلمة الأخيرة

قرر الجميع الذهاب إلى "ميري" ليقتصوا حقهم، ولكي يندمل جرح السنوات العشر الذي لا يزال ينزف في أعماقهم. ركب الجميع العربة التي استأجرها ويل للذهاب إلى السجن القابع في أطراف المدينة. نظرت آريا إلى الطريق وهي تغادر ذلك المكان الذي حُبست فيه لعقدٍ من الزمان، وكأنها تبصر الحرية لأول مرة في حياتها.

شعرت ببرودةٍ تسري في جسدها وارتجافةٍ في أصابعها وهي تراقب العربة تمضي نحو المكان الذي تستحقه ميري. نظرت إلى الطريق خلفها، والمنزل يبتعد شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً عن الأنظار، كأنه سرابٌ في صحراء شاسعة.

في أطراف المدينة، كانت ميري تقبع في زنزانها الباردة كبرودة قلبها، وحيدةً شريفةً، تنظر إلى السقف وكأنها تعدُّ أيام خروجها لتنتقم. حدثت نفسها بغرور: "يظنون أنهم قضوا عليّ بمجيئي إلى هنا، لكنهم لا يعلمون أن الكلمة الأخيرة ستكون لي". كانت تتوعد كل من كان سبباً في وصولها إلى خلف القضبان، غافلةً عن أنهم قادمون إليها في مفاجأةٍ مدوية.

وصل الجميع إلى ذلك السجن الكبير ذي البوابات الحديدية الضخمة، مكانٌ مظلم يبعث الرهبة في النفس، وكان من دخله قد ارتكب كل المحرمات لينال هذا العقاب. توقفوا أمام ضخامة البوابات، فشعرت آريا بارتجافةٍ تسلت إلى روحها؛ فندبات الماضي تظلُّ طيفاً يلاحق المرء مهما طال الزمن.

اقترب ديفيد منها، وضع يديه على كتفها يطمئنها: "لا تخافي، إنها هنا حيث تستحق.. إياك والخوف فأنا بجانبك، ووالداك وديانا معك، ولن نتركك وحيدةً أبداً. هنا ستتحقق العدالة لتدرك حجم أفعالها". تسلل شعور بالأمان إلى نفسها، فوجوده يمدّها بالقوة، ورغم الخوف الذي يسري في عروقها، أمسكت يده بيديها وسارا نحو الداخل بخطى واثقة وعزيمة لا تلين.

فتح الحراس البوابات الكبيرة، واتجه أحدهم نحو زنزانة ميرى ليخبرها بصوتٍ جاف: "أيتها السجينة رقم صفر، هناك من يودُّ زيارتكِ، هيا تعالي". بنظرةٍ باردة سألت ميرى: "من سيأتيني؟ هل هم أطياف الماضي أم أن هناك من يحبني وجاء ليطمئن عليّ؟". كان الحارس يدرك أنها مصابة بجنون العظمة، فاكتفى بقوله: "هيا معي وهناك ستعرفين".

في غرفة الزيارة الباردة التي يفوح منها ضيق الصدر، كان ويل وآريا وديفيد ينتظرون. خرجت ميرى بخطوات ثقيلة، يداها مكبلتان بالأصفاد، ونظراتها تشع حقداً وغلاً وهي تتفحص الوجوه. استقرت نظراتها على آريا الجالسة بجانب ديفيد، ثم على الرجل الذي يغطي وجهه بوشاح لم تعرف ملامحه. تساءلت في نفسها بريية: "من يكون هذا الرجل؟ ولماذا أتى معهما؟". شعرت أنها رأت تلك الهيئة من قبل، لكن ذاكرتها خانتها.

غادر الحارس ليترك لهم مساحة للحديث. جلست ميري ونظرت إلى يد ديفيد الممسكة بيد آريا، ثم هتفت بابتسامة باهتة ومستفزة: "هل الحياة جميلة؟ لا تفرحوا كثيراً، سأخرج من هنا وسأريكم كيف يكون الانتقام، وسأريكِ أنتِ أيتها العاجزة القعيدة كيف ستعودين منزوية وحيدة".

ردت آريا بنبرة واثقة: "بل أنا يا ميري لن أسامحكِ ما حييت، ولن أنسى الحزن والغربة التي عشتها بسببك". في تلك اللحظة، رفع ويل الوشاح عن وجهه، فصُغت ميري وتراجعت للخلف بخوف وهي تصرخ: "لا.. أنت مت! كيف عدت؟ لقد أخبرتك أنهم ماتوا! هذا مستحيل!".

هتف ويل بنبرةٍ تحمل وجع السنين: "لا يا ميري، لم أمت.. بل جئتُ لأراكِ وحيدة بلا عائلة، تنالين جزاء أفعالكِ. لمَ يا ميري؟ لمَ كل هذا الحقد؟ ولكن ماذا أقول لامرأة لم يعرف قلبها سوى الغل وكره النفس؟".

ساد صمتٌ ثقيلٌ، لم يقطعه سوى صرير البوابة بانتهاء الموعد.
بدأت ميري تصرخ بهيستيرية وكأن الجنون قد تمكن منها.
سحبها الحارس وهي تلتفت خلفها وتصيح: "لا.. مستحيل! أنتم
أموات! كلكم أموات!".

غادر الجميع السجن وصراخ ميري يذوب في المدى، حتى
اختفت كطيفٍ شرٍّ انقشع مع بزوغ الفجر. حلَّ النور في عالمٍ
لم يعد فيه مكانٌ للغل من الآن فصاعداً.

أمسك ديفيد يد آريا، نظر إلى بوابة السجن التي أُغلقت خلفهم،
وتنهد بعمق وكأنه يزيح ثقلاً عن صدره لسنوات، وهمس لها
بصوتٍ خافت:

"انتهى الأمر يا آريا.. لقد أغلقنا الباب على القبح للأبد. الآن،
لنعد إلى بيتنا، إلى شجرة الصفصاف.. فقد آن لقلوبنا أن
ترتاح."

الفصل التاسع والعشرون

من هو الصدى؟

هدنةٌ وراحةٌ شعرت بهما بعد زوال غمام "ميري"، وكان وجودها كان يجعل المكان خانقاً مليئاً بالتوتر والخداع.

بعد عودتهم من ذلك المكان، كان لا بد من الاستراحة واستنشاق هواءٍ عليل. قرر ديفيد الذهاب لزيارة قبر والديه، وهذا خلق مساحةً لأريا لتبدأ التفكير: مَنْ هو "الصدى"؟ وَمَنْ هو ذلك الفارس الغامض، هل هو ديفيد أم شخصٌ آخر؟

كانت جالسةً قرب شجرة الصفصاف، تلك الشجرة التي شهدت بدايتها، وأخرجت من جيبها أول رسالة تلقتها: ***"إلى الجميلة التي تظن أن العالم ينتهي عند حدود الكرسي، انظري للأعلى؛ فالقمر بعيد، لكن الجميع يتمنى الوصول إليه."***

لاحت بابتسامةٍ ممزوجة بالأمل على شفيتها وهي تتذكر اللحظة الأولى التي خرجت فيها، حينما شعرت بهمس شجرة الصفصاف يناديها لترى العالم، وتعرف أنها "القمر" الذي عنته الرسالة.

وبينما هي تستذكر هذه اللحظات، استقرت عند قدميها رسالة؛ نظرت إلى الخط الذي كتبت به فوجدت أنه حديث العهد:

"لقد وفيتُ بالعهد، ألن يأتي اليوم الذي نجتمع فيه وتكون شجرة الصفصاف هي الشاهدة على زفاف القمر؟"

و على مسافةٍ ليست ببعيدة عنها، ظلَّ رجلٌ طويل القامة يبتسم
ابتسامةً دافئةً؛ نظرت إليه فوجدته ديفيد، ذلك الفتى الذي رافق
انكسار طفولتها ليقود شموخ شبابها برسائله التي تطير عبر
شجرة الصفصاف.

بابتسامةٍ زينت ثغره نظر إليها وهي ممسكةٌ بالرسالة، فقالت
وهي تطوي الورقة وعيناها تتقابلان، كأنهما عادا بالزمن إلى
تلك اللحظة التي شعرت فيها بقربه رغم صغر سنه: "هل كنتَ
أنتَ الصدى الذي يبعث لي هذه الرسائل؟ كنتَ تخاطرُ بحياتك
لتريني الأمل، رأيتَ فيّ شيئاً لم أراه في ذاتي؛ رأيتَ آريا
أخرى غير آريا المنكسرة الضعيفة المقيدة بذلك الكرسي
المعدنيّ، لكن لم تخبرني؟ لقد كنتُ أنتظرُكَ لتخرجني من
هذا السجن."

تنهد بعمق وكأنه يزيح عن صدره جبلاً ثقيلاً، وبدت ملامح التعب كأنها ندوبٌ على وجهه تخفي ماضياً أليماً يحمله: "كنتُ خائفاً.. نعم، كنتُ خائفاً من أن تكتشف ميري أمري. تمنيتُ لو ذهبتُ وأخبرتكِ بأني اشتقتُ لكِ، وعن الوقت العصيب الذي مررتُ به، وعن كل سنة قضيتها بعيداً عنكِ. شخصيةٌ مثل ميري كان لا بد من مواجهتها بحذر، كانت ترقب كل حرف وتتنظر في كل اتجاه. كنتُ أود أن أراكِ تنهضين بقوتكِ أنتِ؛ رسائلي كانت دافعاً، لكن عزيمتكِ هي ما جعلتكِ تكملين لأنكِ أدركتِ نور روحكِ وشعرتِ به. لم أكن أريد أن أكون الشخص الذي يمنحكِ مظلة، بل أردتُ أن أشارككِ الوقوف تحت أوراق الصفصاف."

بنظراتٍ تحمل الامتنان والشكر نظرت أريا إليه، وقد تيقنت أنها لم تكن وحيدة، وأن ما حدث لها برغم بشاعته قد أنار روحها وبدّل ضعفها قوة، وأن بعض المحن قد تكون منحةً ونحن لا ندري.

هنا أمسك ديفيد يدها وهمس بجانب أذنها: "**إلى الجميلة التي
تظن أن العالم ينتهي عند حدود الصفصاف.. هنا ستكون
البداية، وهنا ستكون النهاية.**"

وفي لحظة الاعتراف هذه، جاء "ويل" وهو يساند "سيري"،
ومعهما "ديانا" التي كانت تسير برفقتها كحارس أمين.

أمسكت يديه وسارا نحو والديها وكأنه تعاقب للأجيال؛ الماضي
يسلم الحاضر عند الشجرة التي شهدت كل شيء منذ عشرين
عاماً.

بابتسامةٍ وضع ويل يد ديفيد على يد ابنته: "شكراً لأنك كنت
معها، ولأنك كنت الصدى الذي أرسلته الصفصاف ليكون
حامياً لها. أريد أن تكون صداها لسنواتٍ طويلةٍ أخرى، حيث
لا ألم، ولا وجود لغمام ميري وغدر تيموثي."

شعر ديفيد بدفء يدي ويل وهو يسلمه أمانةً غالية سيبقى مديناً
له بها طوال عمره، فشكره بامتنانٍ ممزوج بالمحبة: "ليس
لعشر سنواتٍ فقط، بل طوال العمر سأكون الصدى الذي
يساندها، والرسائل التي تكتبها الرياح سأقولها بأفعالي. وهناك
شخصٌ آخر مدينٌ له ولن أنسى فضله، ولولاه لما وصل حرفٌ
واحد.. هذا الشخص هو ديانا."

بابتسامةٍ ممزوجة بالخجل حاولت ديانا إخفاءها وهم ينظرون
إليها: "لم تكوني الوحيدة التي عاشت في ظلامٍ ميري، كنتُ أنا
أيضاً ضحيةً استغللت ضعفي لتجعلني منهزمة، ولكن عندما
رأيتُ ضعف فتاةٍ لا حول لها ولا قوة، عاهدتُ نفسي أن أكون
يد 'الصدى' ورفيقه الذي يوصل الرسائل لأصحابها. وأنتِ
عائلتي يا آريا، كيف أترككِ وأنا أراكِ تذبلين يوماً بعد يوم؟ لا
تذكرين شيئاً من ماضيكِ الذي تعيد ميري صياغته كما تشاء،
يداكِ مضمومتان بضعف على قدميكِ ترفضين شفقة أحد..
رأيتُ في رسائل ديفيد نوراً أعادكِ للحياة، ولو خاطرتُ بحياتي
لفعلتُ ذلك عن طيب نفس."

هنا تحدثت سيري لأول مرة، وكان وجودهم بجانبها كان هو
الشفاء: "سعيدة أنا.. آريا.. أحبك."

رغم تلعثمها في الكلام، إلا أن قلوب الجميع فهمتها وشعرت
بها، وشيئاً فشيئاً ستستعيد صحتها، لتُري ميري أن العجز
الحقيقي يكمن في القلب، لا في الجسد.

الفصل الثلاثون

زفافٌ تحت ضوء القمر، وعهد الصفصاف

"ربما لم تكن حياتي مثالية، ولكني أيقنت أن ذلك الكرسي المتحرك أعاد إليّ الحياة، فأنا عشت به عشر سنوات كاملة وكأنه أصبح قدمي. ربما الأمر كان مؤلماً، وأنا لن أنكر أن في كثيرٍ من الأوقات أنني كرهت حياتي، وذات يوم اجتاحتني رغبة شديدة في أن أغادر هذا العالم، ولكن حين رأيت رسائل الصدى، أعادت لي رغبتني في الحياة وشعرت بأنني قسوت على نفسي.

عندما سمعتُ همسَ الصفصاف ونداءه لي، كانت الرسالة الأولى هي شرارة الانطلاق لأكتب لكم قصة؛ ليس لتروها قصة مثالية أو شيئاً من الخيال، ربما هي قصة من الخيال ولكن الموعظة هي ما يهم: أن ترى النور في نفسك حينما تكون وحيداً، وأن تكون الأيام المقبلة صفصاف خير تورق بأوراقها وظلالها عليكم. وتعلموا أن العجز الحقيقي ليس في الكرسي، وإنما في القلب الذي يرى في أي إعاقةٍ ضعفاً أو عبئاً عليه، وكأنه هو من قرر حق الحياة له؛ لا، فالحياة هي حق لكل قلب يستطيع أن يعيش في النور.

عند وادي الصفصاف، تنتشر الأفراح كستائر نور معلقة على أوراقها وأغصانها، تحت ضوء القمر المنسدل على العشب كعينين رماديتين تضيئان في الليالي المعتمة. في منزل العالم الوردي (منزل الأكاذيب سابقاً) فتيات يشع الحب من وجوههن، تجلس فتاة على كرسي أمام مرآة مزينة بأوراق الصفصاف وكأن أوراق الصفصاف بركة تنتشر في المكان. تضع فتاة يافعة لها مساحيق التجميل وهي ديانا، التي لا يسعها العالم وهي ترى آريا، الفتاة الصغيرة التي رأتها قبل عشر سنوات، ستتزوج عروساً رسمياً بعد قليل، مع الصدى الذي أصبح واقعاً ملموساً لا ظلاً يتسلل في الليل.

نظرت لنفسها في المرآة وشعرت بأنها تراها للمرة الأولى، لم تعد تلك الطفلة ذات العشر سنوات بل أصبحت ذات العشرين ربيعاً، واليوم سيكتمل العاشر من تشرين كلوحة تعزف تحت ضوء القمر. وفي الغابة، بعيداً عن الأفراح، يقف رجل يحمل من الحقد في قلبه ما يكفي ليملاً هذه الغابة، ينظر إلى الزينة المعلقة وكأن لسان حاله يقول: سأنتقم منك يا ديفيد، لن أدعك تهنأ أنت وتلك المرفهة.

وضع يديه على كتفه يتحسس موضع الرصاصة التي أطلقها
ديفيد عليه حين أتى ليصفي حسابه معه، لم يصدق أن شقيقه
وتوأمه قد يفعل به هذا. في وقت سابق: بعد إطلاق ديفيد النار
على تيموثي، خرج وهو ينزف وظل يسير في الغابة وكل
قطعة عشب مدرجة بالدماء وكأنها ترفض أن تكون الأرض
التي يمسخها طاهرة. ظل يسير حتى وصل إلى كوخ يقف على
أطراف الغابة يسكن فيه، كوخ قديم بارد كالكهف تخاف من
المرور بجواره، يشبه برود قلبه وكأن المكان يناسب ساكنيه.

دخل إلى ذلك المكان وظل يبحث عن شيء يحاول إخراج الرصاصة به، فأحضر سكينه ووضعها على النار لبضع دقائق، وبعدها وضعها على ذراعه يحاول إخراج الرصاصة في مشهد مؤلم جداً وكأنه يسلم جلدته. ظل يتأوه بشدة، ولكن الألم الشديد وهو يتذكر لحظة إطلاق شقيقه النار عليه جعله يتساءل بمرارة وكان شخصاً آخر هو من فعل ذلك. بعد ذلك بدأ يحاول البحث عن ضمادات للجروح ليلف نفسه بها، وبعد بحث مضنٍ عثر عليها ولف نفسه بها، وبعدها ركل ما أمامه من أشياء ليفرغ بها غضبه.

نظر حوله ولل فراغ الذي يعيش فيه، فراغٌ يشبه قلبه الخالي من المحبة، ماذا استفاد الآن؟ فقد والديه وفقد شقيقه، والأمر من ذلك كله فقد له هويته وكأنه أصبح مسخاً لا يختلف عن وحوش الغابة في شيء، على الأقل الوحوش تحنو على صغارها وتخاف عليها. أرجع ظهره للوراء وهو يتألم ويطلق برأسه على الحائط الخشبي ندماً على ما فات من عمره، ولكن هل يستطيع البدء من جديد؟ ربما لا تزال في داخله قطعة صغيرة تحتاج لمن يراعيها، نعم هو مخطئ في أمور كثيرة ولكن الله يقبل توبة العبد إذا كان نادماً بصدق عائداً إليه منكسراً.

خلع القلادة التي يضعها حول رقبتة، تلك القلادة التي تحوي صورتهم هم الثلاثة مجتمعين وتبدو السعادة على وجوههم، ما الذي أدخل هذا الحقد إلى قلبه؟ هل ميري السبب أم أنه هو من ملأ ذاته به شيئاً فشيئاً؟

عودة إلى الوقت الحالي:

كان يقف خلف إحدى الأشجار ينظر لشقيقه الذي ينتظر وصول عروسه وتبدو علامات السعادة مشعة على محياه. كان شقيقه ينظر بجانبه فلمحه يقف بين الأشجار، التقت أعينهما في ثانية وكان الزمن قد توقف عند العشر سنوات، آخر مرة رآه فيها قبل أن يصبح مثل الظل يظهر ويختفي.

قرأ ديفيد في عيني شقيقه انكساراً لم ير مثله من قبل، وكأنه
صك غفران عن كل ما رآه، لم يكن هناك داع لأي كلام
فالصمت الذي في أعينهما يكفي. نظر ديفيد إليه نظرة تحمل
كل الألم الذي قاساه وكان لسان حاله يقول: اذهب يا تيموثي،
فندم عينيك هو عفوي عنك. أطل ديفيد النظر لعيني شقيقه
وكانه يرتوي منه لآخر ثانية. رحل تيموثي، رحل نعم، ولكنه
ترك صدى سيظل شقيقه يتذكره. عند إحدى الأشجار ترك
تيموثي تميمة توبته، تلك القلادة التي تحوي صورتهم وهم
صغار وكأنها البداية لكل شيء، وبجانبها ترك ورقة صغيرة
مطوية بجانبها.

اختفى تيموثي وهو ينظر لأخيه الذي كان واقفاً والفرح في
عينيهِ، ثم اختفى نحو الغابة شيئاً فشيئاً كالظل الذي يتوارى في
الظلام. خطا ديفيد نحو تلك الشجرة التي ترك عندها تيموثي
الأشياء، وكان عينيه تتبع أثره حتى اختفى في الغابة. نظر عند
الشجرة فوجد قلادة معلقة وبجانبها ورقة صغيرة مطوية، فتح
القلادة فوجد صورتهم وهم صغار، وبجانبها لمح تلك الورقة
المطوية التي كانت مصفرة وكان الزمن قد أخذ منها، فتح تلك
الورقة وبدأ يقرأ فيها:

< "إلى أخي ديفيد توأمي وشريك طفولتي، أكتب إليك هذه الرسالة وأرجو أن تسامحني. ربما كنت سيئاً وملاّت الغيرة قلبي، لكنني أود أن أتغير يا أخي. لقد أكلت الطرقات من جلدي طبقات حتى لم تعد لي هوية، ليتني ما فعلت ذلك، ليتني ما اتبعت طريق ميري. أنا فقط أردت أن نكون معاً يا أخي، لقد غدرت بي في أول مفترق طرق. سامحني يا ديف واطلب من والدينا السماح، واطلب من آريا أن تسامحني لقد كنتُ فظاً وقاسياً، وختاماً أتمنى أن تجد السعادة في حياتك. (من ظل رجل عاش عشر سنوات في الظلام.)"

طوى الورقة وكأنه يطوي ماضياً سيظل طي النسيان ليبدأ
رحلة جديدة ليس فيها سوى الحب والوفاء. وعلى أعتاب منزل
العالم الوردي، تُزف فتاة بستان أبيض من الحرير مع ذيل
طويل وابتسامة عريضة على وجهها، وبجوارها والدٌ يمسك
يدها ليسلمها لصدى قلبها. نظر ويل لابنته بابتسامة على وجهه
وكان الندوب التي على وجهه قد حل محلها إحساس بالراحة
وهو يرى ابنته عروساً، وسيسلمها بعد ثوانٍ للصدى الذي
أصبح واقعاً ملموساً.

"ما أجملك يا حلوتي، أنتِ الآن تشعين كورد الجوريّ
وستزدادين تفتحاً بعد قليل. أتمنى يا صغيرتي أن تهنيء بحياتك
الجديدة وتكون عوضاً عما قاسيته وأنا بعيد عنك، سامحيني يا
صغيرتي لأنّي لم أكن معكِ حينها."

مدت آريا يدها تمسح الدموع عن وجهه بابتسامة على محياها:
"وكلماتك كانت نوراً أضاء لي ظلام أيامي، ووقوفك بجواري
الآن هو تعويض عن ذلك."

سارت هي ووالدها نحو الممر الطويل المزين بالورود وكان
كل خطوة تخطوها هي عمر كامل، عمر كامل عن الكذب
والخداع ليبدأ عهد جديد ليس فيه سوى المحبة والقلوب
الصافية.

بابتسامة صافية نظر ديفيد لعروس الوادي وهي تخطو نحوه،
صحيح ليس بثبات، ولكنها أمنية ضحى بالغالي والنفيس كي
يحظى بها، في مشهد اختصر سنوات الألم التي عاشها كل
منهما بعيداً عن الآخر. المشهد الآن مهيب وآريا تقترب من
تحقيق حلمها، وكأنها ترى ظل ذلك الكرسي المتحرك الذي
بات سراهاً من الماضي. وفي الخلف سيرى تستند على ديانا
وهم سعداء لرؤية آريا عروس القمر. وتحت ضوء القمر
المنسدل على الأرض، يقف ديفيد بعد وصول آريا ووالدها أمام
شجرة الصفصاف.

توقف ويل أمام ديفيد وهو ينظر له نظرة اختصرت كلّ معاني
الشكر والامتنان، ثم وضع يد آريا في يد ديفيد وقال بوقار:
"اليوم أسلمك روعي وحياتي، ليس لتكون زوجاً فحسب، بل
لتكون كما كنت روحها التي أنارت وسط الظلام، وقدميها التي
تسير بها في وقت الحاجة، ولتكون رسائلها التي تسطر المحبة،
حافظ عليها."

بنظراتٍ ملؤها الشكر والامتنان، مد ديفيد يديه ليتسلم تلك
الأمانة الغالية ثم قال بوقار: "وأنا أعدك بأن أكون كشجر
الصفصاف يورقها بحبه ويكون لها كذلك الوادي الذي امتلأ
بالمحبة بعد زوال الغمام."

وضع ديفيد يديه في يديها ليبدأ عهداً جديداً يكملان فيه القصة لتسطر نهاية سعيدة لهما. فتح ديفيد علبة فيها خاتمان جميلان من الزمرد، أشار لأريا التي فتحت يديها وهي تنظر له بمحبة، وكذلك فعل بالمثل. قال الكاهن بوقار: "في هذا اليوم نحن موجودون خصيصاً لنشهد على زفاف القمر، بين فتاة وشاب مرا بالكثير حتى يصلا لهما، ولتكون شجرة الصفصاف هي رسائل الحب بينهما وصدى يملأ حياتهم محبة بعيداً عن الغمام، ولهذا أعلن وبالسلطة المخولة لي أعلن ديفيد مايكل جين، وأريانا ويل ديمتري زوجاً وزوجة رسمياً."

صفق الحاضرون فرحاً بهذه اللحظة، وكأنها لحظة انتصار ومنهم ديانا التي حاولت مسح دموعها وهي ترى شريكها تتوج للصدى الذي رافقها برسائله. اقترب ديفيد من أذنها وهمس: "اليوم أنتِ الصدى وأنا الورقة التي تطير مع الرياح لتتهتف بحبك وتقول للعالم أجمع، ابتسامتك هي كانت سبباً لعودتي من التيه الذي عشت فيه، حباً كان ربيعاً أزرق ملاً حياتي." كانت نظراتها أبلغ من أي كلام، رفعت رأسها للأعلى ونظرت إلى القمر المنير في السماء كلؤلؤة تشع في قلبها، ومن ثم نظرت إلى ديفيد الواقف أمامها وكأنها تقول لنفسها:

"اليوم شعرت أن العشر سنوات الماضية قد اكتملت، وسأبدأ عشر سنوات جديدة بعيداً عن غمام ميري ومنزل الأكاذيب، وسيشهد المنزل الوردية عشر سنواتٍ جديدةٍ وبجانبى صدى الصفصاف، وسيكون حبه هو بريد الأمل الذى يملأ قلبى." مد ديفيد يده ليسيران معاً فى الطريق الذى اختاراه، طريق مفروش بالورود، ربما لن تكون حياة مثالية ولكن الأهم أن من سيرافقك هو قلب يخاف عليك ويتمنى لك الخير. كانت أشجار الصفصاف تنشر عبيرها الفواح وكأنها رسائل أمل تشاركهم الفرحة وتتمنى لهم السعادة.

مرت السنوات وتغيرت أشياء كثيرة، وقد أُشيعَ أن ميري قد توفيت في محبسها، ففي أحد الأيام وقبل رحيلها باتت عجوزاً ضعيفة لا تقوى على فعل شيء، وأصبحت كورق الصفصاف الذابل لاحول لها ولا قوة، تجلس على كرسي متحرك كذاك الذي أجلست آريا عليه قبل عشر سنوات، وكأن هذا هو مكافأة القدر لها، باتت هزيلةً شاحبة الوجه تراها تظنها شبهاً، حتى إن كثيراً من السجناء كانوا يخافون منها، ويتحاشون الاقتراب منها وكأنها أفعى سامة .

كانوا يحضرون الطعام لها عند باب الزنزانة، وتخرج بعدها لتحضره فلا تجد أحداً .

وفي يومٍ باردٍ لأشمس فيه ولا هواء، كان الحارس يحضر لها الطعام كالمعتاد وطرق الباب عدة مرات، ولكن لم تفتح، نظر من النافذة الصغيرة فوجدها ميتة على كرسيها المتحرك جثة هامدة لأحراك فيها، فشعر بالخوف وذهب لإخبار رئيسه بذلك .

وفي نفس اليوم البارء تم دفنها قرب مكان مجهول لأحد يعلم عنه شيئاً، وكان الناس تخشى الاقتراب منها حية وميتة .

ويقال أنك إذا مررت بذلك المكان تسمع تمتمات امرأة تصرخ وتعوي كالذئب من الألم .

أما تيموثي قد سلك طريقاً آخر رآه الناس في أحد الأزقة يشدُ الطعام مثل المتسولين، يرتدي معطفاً طويلاً وله عينين مخيفتين يشع الرعب منهما، تخافُ أن تمر بجواره .

ظل تيموثي لسنوات عدة في هذا الطريق حتى أُشيعَ أنه ذهب إلى إحدى الكنائس القديمة وأعلن توبته وبات إنساناً صالحاً يخدم الناس وينير لهم دروبهم في التيه .

حتى في أحد الأيام عثر عليه أحد الرهبان نائماً على كرسي في الكنيسة وهو مغمضُ العينين ووجهه ينير بابتسامة صافية وكان آثار الذنوب التي حملها طول عمره قد مُحيت عن وجهه .ابتسم ذلك الراهب وقد شعر بأن الله قد ضم إنساناً صالحاً بعد أن تطهر من الذنوب، ولكن بعد أن أعطاهُ فرصةً أخرى ، نظر إليه فوجده هانيء البال وبجانبه رسالةٌ كُتِبَ فيها :

"لقد شعرتُ اليوم أنّ الله تقبل توبتي ومحى عني كلّ ذنوبي ،أشعر بأنّي سألتقيه قريباً وألتقي بوالدي،لقد اشتقت لهما ولأخي ديفيد ،أنا ممتن لراهب هذه الكنيسة لأنه رأى فيّ نوراً لم أراه في نفسي ،ولأنه كان يدي حين مشيت في دروب الظلام ، الآن أستطيع توديع هذا العالم وأنا مرتاح."

"من ظل رجل عاش في الظلام ثم وجد النور حين لفظهُ الآخرون ."

تمت مراسم دفنه بسلام بجوار قبر والديه كما تمنى وكتب على
شاخصة قبره " هنا عاش رجل عمره في ظلام ،ولكنه أخيراً
وجد نور قلبه ."

أصبح بيت الأكاذيب ملجأً لمن قست عليه ظروف الحياة وأظلم
طريقه، وكان المكان يقول:

هنا تُستبدل الأحزان ويحل محلها الأفراح. أصبحت آريا
معلمة في منزل العالم الوردى تحكي قصتها وتعلم الناس أن
اليأس ضعف، وأن الإرادة قد تنبت في أوج الحزن. وديانا
تساعدها وتعمل معها كمرشدة تقود الناس في أرجاء وادي
الصفصاف وتريهم كيف أن الصدى الذي في القلوب قد يخرج
ليكون طاقةً تضيء في الليالي المعتمة.

وكابتسامة صافية يكافيء بها القدر، رزقا بطفلة جميلة أسمياها
يوري كأنها غرسة صفصاف صغيرة سيسقيانها حباً ووداً.

كبرت يوري في رحاب شجرة الصفصاف وتحت ظلال
والديها وهما يريانها تكبر كل يوم وخطواتها تخطو نحو
الصفصاف. ومع مرور الوقت كبرت يوري وأصبحت فتاة
جميلة تبلغ من العمر 15 عاماً، كانت تقف ذات يوم عند شجرة
الصفصاف حينما لمحت ورقة عند شجرة الصفصاف التي
عُرسَتْ حديثاً. نظرت إلى الورقة وشعرت بأن الغابة تناديها،
فذهبت مسرعة إلى والدتها لتقول لها: "أمي، هناك أمرٌ أود
إخبارك به."

تركت آريا الكتاب الذي تقرأ والتفتت لترى ما تريده ابنتها، ثم
قالت: "ما الأمر يوري، هل حدث شيء معك؟" شعرت يوري
بالخجل قليلاً ثم قالت وهي تحاول مواراة خجلها:

"اليوم، وجدتُ ورقة عند شجرة الصفصاف التي عُرسَتْ
حديثاً، وشعرت بشيء غريب، أحسستُ بأنها تناديني."

ابتسمت آريا وهي تتذكر تلك اللحظة التي نظرت فيها من
النافذة وهي تشعر بهمس الصدى لها، وأول رسالة وجدتتها عند
جذور الصفصاف وارتجافة يدها وهي تقرأ أولى حروف تلك
الرسالة. وضعت آريا يديها على يدي ابنتها ثم نظرت لها
بابتسامة وقالت:

"استمعي لهذا الهمس يا يوري، هناك ستجدين روحك."

لم تفهم الصغيرة هذا، ولكنها شعرت بأنّ كلام والدتها مهم
وعليها التمعن فيه جيداً. مرت الأيام شيئاً فشيئاً، وكلما مرت
ازداد ضعف آريا وزاد نمو شجرة الصفصاف حتى أصبحت
جذورها أقوى في الأرض.

يوماً بعد يوم، امتلأ ذاك الوادي بأشجار الصفصاف الكبيرة والصغيرة، وأصبح ذلك الوادي مكتظاً بالناس، وتحول منزل الأكاذيب لمنزلٍ للأمل يتعلم فيه الناسُ كيف يكونوا أسوياء وأن يتمنوا الخير لبعضهم وأن يروا النور في قلوبهم.

بعد انقضاء العديد من السنوات، أصبحت قصة آريا وديفيد درساً يُتعلّم منه الوفاء والصبر على المحن، وأن العين التي ترى في الإعاقة عيباً هي العيب ذاته. وفي ليلة يبزغ فيها النور، كانت آريا وديفيد يجلسان قرب أرجوحة وبجوارهما شجرة الصفصاف وحولهم سيري وارين أحفادهما يلعبون.

استندت آريا برأسها على كتفه وقالت: "شكراً لأنك كنتَ قدمي حين فقدتها، وعيني حين رأيتُ الظلام وروحي حين فقدتُ بصيرتي، والشكر لكلماتك التي أدركتُ من خلالها أننا قد نحمل طاقة من نور حين نتلقى معاملة أو فعلاً طيباً. الشكر لأنك صدى روحي حين ضاعت، ولأنك كنتَ فلوباتير الذي حملني ولم يتركني وحيدة أغرق في ظلامي وعجزي."

ابتسم وهو يتذكر تلك اللحظة التي وضع فيها الرسالة الأولى
وسعادته حين رآها تقرأها، فقال:

"بل الشكرُ لكِ لأنكِ كنتِ الصفصافِ الذي غرسَ بحبه في
قلبي، وبأنكِ صُنْتِ عهد الصفصافِ أننا سنكون معاً، حتى لو
فرقتنا الأيام." نظرت للقمر نظرة طويلة كأنها نظرة وداع،
وشعرت بأنه يناديها ليهمس لها: "الآن قد أتممتِ رسالتكِ، حان
الوقت لتكوني بجوار الصفصاف."

وبنظرة أخيرة للقمر الذي بجانبها، أطلت له وكأنها تترتوي من
عينيه، نظرت إليه ثم أغضت عينيها في استراحة أبدية حيث
لا وجود لشرور ولا خبائث.

نظر ديفيد إليها فوجدها قد أغمضت عينيها، فظنها نائمة فقال
ممازحاً: "هل نمت يا ري؟ هيا بنا إلى الداخل فالجو أصبح
بارداً، هيا، لن أستطيع أن أحملك لقد أصبحت عجوزاً." نظر
ديفيد إليها فوجدها لا تجيبه، شعر بالقلق عليها وحاول هزها
عدة مرات وظل ينادي:

"ري، ري عزيزتي ردي علي، هل تسمعيني؟" لم ترد عليه،
وشعر بأن قلبه قد انزعج من مكانه وظل يحدث نفسه: "لا يا
ري، أنت لن تتركيني، لقد وعدتني بأن نظل معاً طول العمر،
أيعقل أن تتركيني؟"

لأول مرة في حياته يغرق ديف في الدموع ولا يستطيع
التوقف، فقال بصوتٍ هز أركان الوادي: "ما بالي، دموعي لا
تتوقف، أشعر اليوم بأنني يتيم للمرة الأولى في حياتي. لم يا آريا
لم؟ كنت أريد أن أخبرك بأنني أحبك وسأظل أحبك، سأحقق
أمنيته يا حبيبتي، سأدفنك بجوار شجرة الصفصاف العتيقة
التي رأيتك فيها أول مرة، ستكون هي نهايتي معك أيضاً."
وضع يديها بجانب بعضهما ودعا لها في صمت راجياً لها بأن
تظل بخير هناك.

في الصباح الباكر، دُفنت آريا جوارَ شجرة الصفصاف كما
كانت تتمنى؛ رحلت في هدوء لم تزعج أحداً ولم تضر الكره
لمخلوق ما. رحلت ولكن سيرتها ستظل قصة يتناقلها ساكنو
هذا الوادي ومسافروه .

مضى يومان منذ وفاة آريا ،وديفيد وجهه شاحبٌ وعيناه ذابلتان
،لم تمس يده الطعام منذ ماحدث وكان الحياة أصبحت بلا هدف
أو معنى ،ذهب إلى النافذة التي كانت تجلس بجوارها دوماً
وتخيل أنها تجلس وتتنظر منها تنتظره في ليالي القمر ليترك لها
رسائله ،فقال وكأنه يحدثها : " انظري ياري ،لقد كتبتُ لكِ
رسالة ياعزيزتي ،أرجوكِ عودي أنا لاشيء بدونك ،كيف
أعيش ؟ أنا لم أتخيل أن تمر هذه اللحظة عليّ ، لقد فقدت كلَّ
أحبائي . لمَ سأعيش ولمن سأعيش ؟ لقد اشتقتُ لابتسامتكِ ، أنا
لست صدى ، أنا الآن شجرةٌ جوفاء لافائدة منها ... أرجوكِ
ياري ... عودي ..

ظل يردد تلك الكلمات وهو ينتحب من البكاء ،وكأنّ قلبه قد شُقّ نصفين وقد تبدل حاله .

يوما بعد يوم بدأ وجهه بالذبول ،وفقد وزنه بشكل ملحوظ وشعر أولاده وأحفاده بالقلق عليه، فكانوا يحاولون التهوين عليه ،ولكن دون فائدة، بل وكان يصرخ إن اقترب أحد منه ويظل يمسك الرسائل ويتخيلها تجلس أمامه ،ويقرأها لها كأنها حية ،ويقترب من الفراغ كأنه يهمس لها :

" هل تسمعين ندائي لكِ أيتها الصفاة ،أنا الفارس الذي سينتظرك عند التلة الحمراء وقت الشفق الأحمر ،سأنتظركِ لنتزوج تحت ضوء القمر."

ظل على هذا المنوال أياماً عدة يتخيلها أمامه، حتى إنه ذهب ليحضر الكرسي المتحرك ويتخيلها جالسةً عليه ويجرها وهو يقول :

" هيا ياعزيزتي ،أين تريدين الذهاب ؟ ... هل تريدين الذهاب
عند شجرة الصفصاف التي تحبينها، هيا لنهرب من ميري
..هيا .. هيا .."

بعد أن سكن كلُّ شيء، ولم يعد في الغرفة سوى صمتِ
الوداع.. جلستُ بجانب فراشها، مسدتُ يديّ عليه وأغمضتُ
عيني. وفي تلك اللحظة، لم أتذكر وجهها الشاحب ، بل انفتحتُ
في عقلي نافذةً على زمنٍ بعيد..

«تحت ظلال الذاكرة»

«أغمضتُ عيني، فارتدّ بي الزمنُ عشرين عاماً إلى الوراء..
لم يكن هناك كرسيّ متحرك، ولا جدرانٌ باردة، كان هناك فقط
"وادي الصفصاف" يمتدُّ أمامنا كبساطٍ من الجنة.

كنا طفلين يسبقان الريح.. كانت "آريا" تركضُ بخفةٍ غزال،
وضفائرُها تتطايرُ خلفها كخيوطِ الشمس، تلتفتُ إليّ بضحكةٍ لم
تكن تعرفُ الحزن، وتصرخُ:

* "لن تجدني يا ديفيد.. لقد اختبأتُ في قلب الشجرة!"

كنتُ ألهثُ خلفها، وأتعمدُ التعثرُ لكي أسمع رنين ضحكتها وهي
تظن أنها هزمتني. وتحت أغصان الصفصاف المتدلّية كستائر
الخفاء، كنا نجلسُ لنتقاسم أحلاماً أكبر من سِننا.

يومها، أمسكتُ بيدي الصغيرة وقالت بجديّة طفولية:

* "عدني يا ديفيد، ألا تتركني وحدي أبداً، حتى لو وضعتُ في الغابة."

رفعتُ إصبعي الصغير، وعقدتُ معه ميثاقاً لم تكسره السنون:

* "أعدكِ.. سأظلُّ أبحثُ عنكِ، وسأعرفُ طريقكِ دائماً من صدَى ضحككِ."

لم نكن نعلمُ حينها أن الغابة ستكون "عشر سنواتٍ من الصمت"، وأنني سأجدها فعلاً، لا بالركض خلفها، بل بكلماتٍ أرسلها كـ "صدى" لو عودنا القديمة.. ليكون لنا من العمر "عشرون يوماً" فقط، نفي فيها بعهودٍ طفولةٍ كاملةٍ.»

فتحتُ عينيّ والدموعُ تحجبُ الرؤية، نظرتُ إليها أتخيلها
أمامي وهمستُ:

* "لقد وفيتِ بوعدكِ يا آريا.. لم تضيعي في الغابة، ووجدتِ
طريقك إليّ.. والآن، حانَ دورُكِ لتركضي بحريةٍ في وادي
الصفصافِ هناك.. في السماء.."»

ولم يمض وقت طويل حتى رحل ديفيد كما تمنى، وأوصى أن
يدفن جوار حبيبته والفتاة التي قضى عشر سنوات من عمره
يبحث عنها في روحه ويكتبُ لها رسائل ستظل باقية حتى
رحيلهم. دُفِنَ ديفيد بجوارها كما أوصى، وكُتِبَ على شاخِصَة
قبريهما: "هنا يرقد الصدى وبجواره ترقدُ صفصافته".

مضت السنوات واحدة تلو الأخرى، ولا يزال قبر ديفيد وآريا
هناك، ويمر المسافرون أو سكانُ الوادي ويدعون لهما، ويقالُ
إنك إذا مررت من جوار ذلك الوادي ستسمع همساً لأرواح
تحرص المكان، ويقال إن هذه أرواح ديفيد وآريا تمر من هناك
تطمئنُ عليهم وتحرسهم كأطياف خير.

وعن الرسائل، فلقد وضعت في صندوق زجاجي يسمى زجاج
الصدى، موضوعة في منزل الأكاذيب الذي تحول لمتحف
يأتي الناس ليروا الرسائل ويقرأوها، وكتب على ذلك
الصندوق:

" إلى الجميلة التي تظن أن العالم ينتهي عند حدود الكرسي.. انظري للأعلى،
فالشجر لا يملك أقداماً، ومع ذلك يطال عنان السماء. لا تحزني لأنك ثابتة، فالجبال
ثابتة والكل يطمح للوصول لقممها. ابتسمي، فالحياة تنتظر إشراقك لتبدأ."

وأكملت يوري مسيرة والديها وبدأت تحكي لأولادها قصة والديها وحكاية شجرة الصفصاف التي تهمس لمن يقترب منها.

وشيئاً فشيئاً نما ذلك الوادي ولم يعد أحد يسمع عن ميري أو تيموثي شيئاً، وكأنهم طيفٌ جاء واختفى كأوراق الخريف المتساقطة على الأرض.

تمر السنين والأيام، وأسطورة وادي الصفصاف بدأت تنتشر في أرجاء فرنسا كلها كأنها قصة شعبية يتناقلها الناس، يتعلمون منها الصبر على الأيام.

وصار ديفيد وآريا أمثالاً يتناقلها الناس فيما بينهم، ويأتي الناس لزيارة منزل العالم الوردي (منزل الأكاذيب سابقاً) كمزارٍ سياحي يستمتعون برؤية الجداريات واللوحات المرسومة على الحائط، ولم تعد تلك الممرات مظلمة، بل أصبحت نوراً يهدي التائهين في دروب الظلام.

وفي يومٍ كانت يوري تقرأ كتاباً وهي تجلسُ على الكرسي التي لطالما جلست عليه والدتها، وهي تقرأ كتاباً يحمل اسم " رسائل من شجرة الصفصاف "، والذي يحمل قصة كفاح والديها وأنت إليها أصغر أحفادها والتي تدعى آريا كوالدتها، أنت إليها تسألها " جدتي، ماذا تقرأين؟ "

تركت يوري الكتاب وانتبهت لحفيدتها التي سألتها، فأجابت بابتسامة :

" إنني أقرأ كتاب " رسائل من شجرة الصفصاف "، وتحكي عن قصة لقاء أبي بأمي وكيف كان يكتب إليها الرسائل في عز ضعفها لينير روحها، وبعد رحيلها قرر أن ينشرها في عملٍ ليعرف الناس قصتهم ويأخذوا الموعظة منها . "

بدأت يوري في قراءة الكتاب الذي جذب انتباه الصغيرة ،
وكانها قد عثرت على كنزها، وبينما تقرأ جدتها الكتاب
،سقطت ورقة من الكتاب كُتِبَ فيها :

" إلى آريا حبي الأول وعمري الممتد حتى وفاتي ،إليك أهدى
هذه الكلمات في كتابٍ ولم أرى أجمل من أضع هذه الرسائل
لوضعها في كتاب مهديّ إلى روحك ،حتى ألتقيك مجددا
ياصفصافتي ،لروحك السلام."

ابتسمت يوري وهي تقرأ الرسالة وقد شعرت بأنّ روح والديها
بجوارها تهمس لها لتكمل مسيرتهم

أغلقت يوري الكتاب وهي تشعرُ بالسعادة ، لأنها أكملت
مسيرتهم مع أولادها وأحفادها .

نظرت من النافذة فشعرت بأنها تسمع همسا، وضعت الكتاب
على كرسيها ثم ذهبت لشجرة الصفصاف وحينها سمعت همساً
يناديهـا

" الصفصاف يأتي لمن قلبه نقي، وأنتِ قد وجدتِ روحكِ هنا . "

لفح الهواء شعرها الذي يشبه شعر والدتها ثم نظرت للأعلى
وشعرت كأن والديها يراقبانها، فدعت لهما بصمت وذهبت
لتعثر على روحها كما فعلت آريا.

هذه كانت قصة رسائل من شجر الصفصاف كتبتها لكم بقلبي،
لأريكم أن الكرسي المتحرك قد يكون رقيقاً وفياتاً عن بعض
البشر، وأن الإرادة يرسلها الله نوراً في أوقات العتمة، وأن كل
إعاقة هي موهبة فطرية من الله، وأن قلوب بعض البشر هي
كذلك.

الكلمة الأخيرة

وهكذا.. انطوت صفحاتُ الوادي، لكنَّ همسَ الصفصافِ لا
يصمتُ أبداً. رحل الذين سكنوا الحكاية، وبقيَ الصدى ليذكّرنا
بأنّ الأرواحَ القوية لا تكسرُها قيودُ الجسد، وأنَّ الحبَّ هو
البريدُ الوحيدُ الذي يصلُ إلى السماءِ دون توقفٍ. يا من قرأتَ
هذه الكلمات.. لا تبحث عن النورِ في البعيد، بل كن أنتَ النورَ
لمن غرقوا في العتمة، واجعل من قلبك صفصافاً يظلُّ على
المتعبيين.. فالحيأة ليست بما نملكه من أقدام، بل بما نتركه من
أثر.

إهداء

إلى أولئك الذين ظنوا أن الطريق قد انقطع بهم عند حدود
عجز، أو انكسارِ قلب.. إلى كل من جالسَ الصمتَ طويلاً،
وانتظرَ أن يأتيه (الصدى) ليوجه خطاه.. إلى (أريا) الكامنة في
روح كل من يرى النور في أوج العتمة، وإلى كل (ديفيد) كان
سنداً ووفاءً حين عزّ الرفيق.. أهديتكم هذه الحكاية.. لتكون
كشجر الصفصاف، تظلُّ أرواحكم المتعبة، وتهمسُ في قلوبكم
أنَّ العجز ليس في الأقدام، بل في الكلمات التي لم تُكتب،
والمحبة التي لم تُعطَ بعد. إلى كل قلبٍ يستحق أن يعيش في
النور.

"تمت ."

